

روح الإسلام

جمال البنا

روح الإسلام

تأليـف

جمـال البـنا

" الطبعة الثالثة "



مقدمة الطبعة الثالثة

لهذا الكتاب معزة خاصة. إذ هو يمثل بداية عودتى إلى "الشأن" الإسلامى الذى كنت قد بدأته عام ١٩٤٦ عندما كتبت فصل "فهم جديد للدين" فى كتاب ديمقراطية جديدة. ثم عرضت له فى كتاب "موقف المفكر العربى تجاه المذاهب السياسية المعاصرة" سنة ١٩٥٧. ثم شغلتنى الظروف عنه عندما تكونت الثقافة العمالية أوائل الستينات وبدأت تنظيم وتنهيج الثقافة العمالية وطلب المسئولون عنها منى تقديم كتابات وإلقاء محاضرات عن التنظيم والبنيان النقابى وتاريخ الحركة النقابية فى بعض دول العالم، وقد استغرق العمل فى هذا المجال – تأليفا وترجمة – ومحاضرات عشرة أعوام أخذتنى عن موضوعى الأثير. حتى لم استطع صبراً فكان "روح الإسلام" ...

وعندما أفكر الآن أجد أن مشغوليتى عن الكتابة الإسلامية الخالصة طوال هذه المدة، وعكوفى على الحركة العمالية والنقابية أسهم فى إثراء تفكيرى الإسلامى وتوسيع آفاقه وإعطائه إحدى الخصائص التى يتميز بها عن الفكر الإسلامى التقليدى .

وعندما صدر الكتاب عام ١٩٧٢، ظفر بإعجاب الكثيرين وقال لى أحد النقاد ما من واحد يقرأه حتى يقع فى حبه !، وأذكر أن الدكتور أحمد النجار رحمه ا ، وهو رائد البنوك الإسلامية أيقظنى فى موهن من الليل ليخبرنى بأنه وجد فى هذا الكتاب كل ما كان يفكر فيه بالنسبة للإسلام، وطلب أن يتولى الاتحاد الدولى للبنوك الإسلامية إعداد طبعة خاصة لتكون أحد المراجع فى الدراسات "لكوادر" البنوك الإسلامية، وقبلت بالطبع، وظهرت الطبعة الثانية لهذا الكتاب ..

وفى مرحلة لاحقة أعجبت به السيدة منى عبد ا التى تتعاون معى تعاوناً وثيقاً صادراً عن فهم عميق ومشاركة فكرية تامة حتى لقد بدأت – رغم مشاغلها العديدة – فى ترجمة بعض فصوله إلى الفرنسية واقترحت على إعادة طبعه .

ولم أكن أفكر فى طبع كتاباتى القديمة لأنى اعتقدت إن الكتب الأخيرة التى تمثل التطور الفكرى الأخير تغنى عنها، وأنها قد تُظهر هذه الكتابات الأولى كما لو كانت ساذجة، ولكن ظهر أن الأفكار التى تضمنت هذه الكتب الأولى لها جمهور كبير لعله أكبر من الجمهور الذى يستوعب الكتابات الأخيرة، ففيها بساطة وسهولة، وهى تقدم موضوعها بصورة سائغة مفهومة تبرأ من التعقيد والتحقيق الذى تطلبته موضوعات مثل "نحو فقه جديد" وغيره فضلاً عن أن أفكارها تتوفر فيها الجدة والأصالة بمعنى أن مستواها فى هذه لا يقل عن مستوى الكتابات الأخيرة .

عامل أخر شجعنى على إعادة طبعه، ذلك أنه يمثل درجة من درجات تطورى الفكر، وكيف استطعت أن أخاص من معمعة المشاغل – ولو جزئيا – لأقدم هذه الإضافة عن روح الإسلام .

وكانت النية إصدار جزء ثان كما جاء فى مقدمة الطبعة الأولى، ولكن حالت دون ذلك التطورات، ومعظم الأفكار الواردة فى هذا الكتاب هى ما نؤمن به الآن، وأن أقلعت فى الأيام الأخيرة أو عن مناقشة العقائد ما بين الأديان، **لأنى وجدتها فى الحقيقة وراثة يحملها أصحابها، وهى بهذه الصفة لا تدخل فى مجال الاختيار والإرادة الفردية، وأن إثارتها توجد حساسيات لا تختاف عما تثيره الموضوعات العنصرية، وقد أغنانا الإسلام عن ذلك لأنه أرتضى التعددية الدينية ﴿لا أبعد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾. ﴿لكم دينكم ولى دين﴾ وأن كل حديث عن الاختلافات ما بين الأديان مردها إلى ا تعالى يفصل فيها يوم القيامة بحكمة أعلاً من حكمتنا وفهم أوسع من فهمنا الذى يتحكم فيه القصور والتحيزات. بل لقد رأيت أن فى تعددية الأديان فضيلة وفيرة، وإلا لما أرادها ا وأبقى عليها، فلنتقبلها بطيبة نفس ولنعلم حكمه ا فى ذلك ..**

ولعل من حق قراء هذا الكتاب أن يعلموا إن السلطات تحفظت عليه فى المطبعة قرابة عام تقريباً حتى أمكن استخلاصه منها بعد أن أصاب العطب بعض النسخ التى كانت موضوعة فى مكان أفترض أن تنقل منه فوراً فظلت فيه عاما .

وأخيراً فإن هذا الكتاب يأتى وقد أعلنا عن ظهور دعوة الإحياء الإسلامى، وسيأخذ هذا الكتاب طريقه ليكون كتابا جديداً يضاف إلى مكتبتها .

لهذه الأسباب يسعدنى أن أقدم إلى القارئ الطبعة الجديدة من روح الإسلام ...

جمال البنا **شعبان ١٤٢١**

القاهرة فـى : نوفمبر ٢٠٠٠

مقدمة الطبعة الأولى



الحمد والصلاة والسلام على رسول ا

" قد استقام الميســم "

لم يكن خالد بن الوليد بين رجالات قريش بالذي يُكِنّ عداوة خاصة للإسلام، ولكنـه لمـا كان القائد المبرز فقد كان عليه بحكم هذه الصفة أن يوقع بالمسلمين الهزيمة، وقد حاول ذلك فـي كل المعارك التي شهدها وحققه في "أحد" التي استشهد فيها زهرة فرسان المسلمين، ولكن انتصار الإسلام كان أعظم من هزيمة أحد، وقد فكر خالد فأطال التفكير، ثم خرج ليعلن بطريقته العسكرية الصريحة "قد استقام الميسم وإن الرجل لنبي" وذهب ليضع سيفه بين يدي الرسول ..

واليوم، وبعد ألف وثلاثمائة سنة يقف المفكر العربي الموقف نفسه، فحتى لو كان يضـمر إعزازاً خاصاً للإسلام، فإنه بحكم صفته كمفكر يرفض الأخذ بالمسلمات، ولا يرى فيمـا ورث أو ما يؤمن به الناس مقنعاً لإيمانه، خاصة وهو يشهد الأوهام تكاد تذهب بالحقيقة فيما يقرأ أو يلمس عن الإسلام، ومن ثم فانه يبدأ معركة فكرية قد تكون أقسى من معركة خالد، لأن الفكر أعصـى من السيف، والعصر الحاضر أقسى من الزمن الماضي.. ولكن النهاية مع ذلك واحدة: انتصـار الإسلام ..

وقد تكرر هذا الموقف ببدايته ونهايته منـذ أن انبعثـت المجموعـة الأولـى للمفكـرين المصريين في العشرينات وضمت طه حسين ومنصور فهمي وعلى عبد الرازق ومحمد حسـين

هيكل وإسماعيل مظهر حتى آخر المجموعات في الخمسينات والستينات وضمت خالد محمد خالد ومصطفى محمود وجلال كشك وغيرهم، فهؤلاء جميعاً بدأوا بالشك أو المعارضة، وانتهوا إلـى الإيمان واليقين.

ومع أن التكرار يبعد الأمر عن أن يكون حالـة فرديـة ويعطيـه مضـمون الظـاهرة الاجتماعية، ويضيف برهاناً جديداً على أنه "ما شاد الدين أحد إلا غلبه" إلا أن هذا التكرار نفسـه يدل على أن هذه المعالجات كانت جزئية، فكل منها يتناول ناحية في نواحي الأدب أو العقيـدة أو النظام الاجتماعي في الإسلام دون أن تجر معالجة شاملة لاستكشاف الإسـلام كنظريـة شـاملة ومتكاملة، وللربط بين هذه المعالجة وبين المجتمع الحديث، وبوجه خاص بالنسبة للوطن العربي، فقد حال دون ذلك الانفصام في شخصية المجتمع المصري الذي بدأه محمد علـى عنـدما أوفـد البعثات إلى الخارج، وفتح الباب للثقافة الأجنبية ووضع بذلك بذرة الانقسام ما بين الثقافة الحديثة التي تمثلها الجامعات الأوربية، والثقافة التقليدية التي يمثلها الأزهر. ودعم الاحتلال البريطاني هذا الانقسام وعمقه، فاحتضن باليمين المعسكر التقليدي واحتضن بالشمال المعسكر الحديث وعمل بكل قوة للحيلولة دون التقائهما. وكانت نتيجة ذلك أن أصبح المثقفون المحدثون لا يلمـون بالإسـلام والمثقفون التقليديون لا يلمون بالعصر. ولما كان لكل من المعسكرين اعتزازاته الخاصة ومواقعه ومناطق نفوذه، فقد آثر كل منهما الانطواء وحفر خنادقه وآوى إليهـا. وأصـبح ممثلـو الثقافـة الإسلامية بمعزل عن ثبج المجتمع وتياره الرئيسي وأخذوا شيئاً فشيئاً شكل "رجال الدين" بأزيائهم وسماتهم وتخصصاتهم المعينة، فلا يطلبون إلا في المناسبات الدينية ولا يستشارون إلا عندما يراد الاستعانة بنفوذهم الروحي، وعندئذ يؤتى بهم ليأخذوا مقاعدهم بجانـب إخـوانهم رجـال الـدين المسيحي، لا يفرق بينهم إلا لون العمائم!، بينما يدير المعسكر الآخر شئون الحياة، ويهيمن علـى الصحف ووسائل الإعلام والتوجيه الأيدلوجي والنشاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

ولم تكن هذه القسمة بالسيئة بالنسبة للفريقين فيما يبدو. فقد عينت الحدود والاختصاصات، وتقبل كثير من "رجال الدين" هذا الوضع بعد أن استرضوا ترضية مادية فيما يتعلـق بالوظـائف والدرجات والألقاب وترضية أدبية في المناسبات، وقنعوا بما قدمه المسئولون من رضيخة سـخية وإن لم تصل إلى حد السهم الذي يدل على لون المشاركة. وإن كان يحدث بـين الفينـة والفينـة احتكاكات واستثارات يشعلها المتحمسون من الفريقين الذين يفكرون تفكيراً أيدلوجيا يجاوز دائـرة الاختصاصات العملية والفنية. فيظهر من الفريق الحديث من يشـن حربـاً علـى "التعصـب" و

"الرجعية" و "الفسوق" و "التقليد الأعمى" ولكن قلما يجاوز كل فريق مواقعه وخنادقـه التـي آوى إليها، وإن نجحت هذه المبارزات في توهين المبادئ التي يمثلها كل فريق وزعزعة الثقة بها .

ومع هذا فلم تكن الضحية الحقيقية لهذا الوضع هي الإسلام، فالإسلام غنى بأصوله، قوى بمبادئه، مستكف بحماية ا وحفظه، ولا الثقافة الحديثة التي تمضى قدما في بلادها ولا الفـريقين اللذين يحتفظ كل منهما بمواقعه.. ولكن الضحية كانت المجتمع المصري، أي الأغلبيـة السـاحقة التي لم تضعها ظروفها في معسكر من المعسكرين، أو تلزمها مواقع الالتزام أو الاحتـراف فـي إحداها. وكذلك الشباب الذي تغلب على حماسته قيود الأوضاع ومقتضـيات المصـالح. فأصـبح هؤلاء نهباً وفريسة للقلق والحيرة والضياع والانتماء إلى أشد المذاهب غرابـة وشـذوذاً ونكـراً وسرى التفكك والانقسام إلى نواة المجتمع- الأسرة- فأعلن الآباء والأمهات عجزهم عن توجيـه أبنائهم وبناتهم، أو الوصول معهم إلى صعيد مشترك للتفاهم. ولم يعد من النادر أن نجـد أسـرة الأب فيها شيخاً، والأم حاجة، والابن شيوعي، والبنت وجودية. فكيف يمكن أن نسمى "هيئة الأمم" هذه أسرة .. ؟

وفشلت كل المحاولات التي أريد بها إصلاح هذا الوضع أو حتى التنبيـه إلـى خطـورة الأمر، رغم النكسات والمثلات. لأن المعالجة الحقيقية إنما تكون بالمجابهة الحاسـمة الصـريحة والمنهجية للمسألة الأيدلوجية، والمسألة الأيدلوجية لهذه البلاد هي الإسلام، فإنها لم تعرف مـذهبا أو نظرية على مدار ثلاثة عشر قرناً متوالية إلا الإسلام. ومن ثم فإن أمس حاجة، وأعظم خدمـة يمكن أن يقوم بها مفكر عربي هي أن يحدد الموقف الأمثل ما بين الإسلام وما يفرضه من إيمان، والعصر الحديث وما يطرحه من أوضاع وبقدر ما يكون هذا التحديد صريحاً، واضحاً لا لبس فيه ولا التواء، بقدر ما يعجل هذا بانتهاء فترة الانتقال ويخلصنا من الحلقة المفرغة ومن حالة الضياع والتمزق .

وليس هناك مانع أصولي من ذلك. فقد قام الخلاف أولا على أساس التخصـص المـريح الذي تقبلته القيادات دون أن تعنى بشعبها التائه على مفارق الطرق. ولو أنطلق كل منهما لالتقيـا في نقطة معينة تلك هي أن الإسلام هو قاعدة المجتمع المصري، وبدونه لا يكون لهـذا المجتمـع أصالة أو استقرار. وهو أمر يجب أن يعترف به المثقفون المحدثون لأنه حقيقـة يثبتهـا الواقـع والماضي والتمحيص الموضوعي. ومن ناحية أخرى فيجب على ممثلـي الثقافـة الإسـلامية أن يستكشفوا الإسلام من جديد فى ضوء العصر. وأن يفهموه فهماً ينبثق من جوهريـات وأصـول

الإسلام دون التفريعات. لأن الأصول والجوهريات هي وحدها التي تمثل هداية الإسلام للبشرية. أما التفريعات فإنها اجتهادات تتأثر بالأوضاع وتتكيف بالملابسات .

***

ومنذ قرابة ربع قرن وقد لفتت هذه الظاهرة انتباهي، وقد رجوت وتمنيت أن يقوم مفكـر مسلم بهذه المهمة التاريخية، وعبرت عن ذلك في كتابي ديمقراطيـة جديـده (**١٩٤٦**) وموقـف المفكر العربي تجاه المذاهب السياسية المعاصرة (١٩٥٧).. ولكن ربع قرن مضى دون أن يظهر هذا المفكر، وأصبح القيام بهذه المهمة فرض عين ..

ومن الحق أن أقرر أن هذا الكتاب إنما جاء بهدف مزدوج. هدف استقصاء الحقيقة الإلهية التي تمثل ذروة وقمة المعنويات وهدف البحث عن حل لهذا الضياع الأليم الذي نعيش فيه، والذي أفلست في علاجه كل الجهود التي بذلت -على مدار العشرين عامـا الأخيـرة- والاصـطناعات والصياغات ...

وقد وجدت أن هذا العمل يجب أن يتضمن أربعة أبواب حتى يحقـق المعالجـة الشـاملة المنشودة. ففي الباب الأول يكون علينا أن نوضح مبررات الأخذ بالإسلام حتى يمكن أن نرد على السؤال الذي يستكن في أعماق الكثيرين "لماذا الإسلام ؟" فإذا وضح ذلك فعلينا أن نرد على سؤال آخر هو "ما هو الإسلام" لأن الغشاوات حجبت حقيقة الإسلام وجوهره. وهذا هو ما يعالجه الباب الثاني بعنوان "مكونات الإسلام" .

ولكن معرفتنا بمكونات الإسلام من عقيدة أو عبادة أو خلق أو شريعة أو تراث لا تكفـى، إذ لابد أيضاً من أن نفهم طبيعة الإسلام وروحه، وطريقة عمله وتفاعل مكوناتـه ووسـائله فـي التقييم ومعاييره في الحكم على الأوضاع والسلوك وما استحدثه من أسـاليب مـن "المقاصـة" أو "البدائل" الخ... مما يطلقون عليه في التعبير الإنجليزي "ميكانزم الإسلام" وهو ما يجب أن يعالجه الباب الثالث .

ولكي يكون هذا الباب مفهوماً وواضحاً، فقد رأيت أن مـن الضـروري إيـراد بعـض الأمثلة التطبيقية لفهم الإسلام تجاه عدد من القضايا البارزة مثـل المـرأة، والعمـل، والفنـون، والآداب، والماركسية الخ. . . وبهذا تتضح أبعاد الصورة تماماً وتتميز قسماتها بما لا يدع شـكاً أو ظناً .

ولكنى لم أكد أبدا في الكتابة حتى وجدت أن الكتاب بهذا الترتيب سيكون ضخماً يشق على القارئ شراءه واستيعابه، كما تحكمت في الأمر أيضاً الضرورات العملية والمادية. ولم يكن هناك سوى مخرجين. فإما ضغط المادة ضغطاً كبيراً بحيث يتضمن الكتاب الأبواب الأربعة، ويكون في حجم معقول، وقد وجدت أن هذا يكاد يكون مستحيلا، فلم يبق إلا تقسيم الكتاب إلى كتابين يتضمن أولهما البابين الأول والثاني، ويتضمن الثاني البابين الثالث والرابع، والنقص في هـذا أن قـارئ الكتاب الأول قد لا يقرأ الكتاب الثاني، أو أن قارئ الكتاب الثاني قد يفوته الأول، ولكن هذا أهون من أن يأخذ القارئ صورة عامة غير واضحة أو محددة عن الموضوع بأسره .

ومن ثم فإن هذا الكتاب في حقيقته هو نصف المشروع وأرجو أن يظهر قريبـاً نصـفه الآخر، وأن يقدر للذين قرأوا الأول أن يقرأوا الثاني حتى تتكامل في أذهانهم صورة هذه المحاولة لاستكشاف روح الإسلام ولجعله نقطة الانطلاق، وحجر الأساس في نهضـة الـوطن العربـي، ولإفادة البشرية عامة به ..

جمال البنا

القاهرة فى : **سبتمبر ١٩٧٢**

شعبان ١٣٩٢

الباب الأول

لماذا الإسلام ؟

حقيقة لماذا الإسلام ؟

أغلب الظن أن هذا التساؤل هو ما يتبادر إلى ذهن معظم المفكرين والمثقفين في الـدول العربية .

فالمفكر العربي يستهدف التقدم والنظر إلى الأمام وليس التأخر والنكوص إلـى الـوراء. وهو يؤثر الحرية على مختلف صور الضبط والإلزام. وواقع المسلمين جماهير وقيادات لا يشجع على دخول هذا الميدان بل هو يثبط عن ذلك غاية التثبيط. ولدى الإسلام مـن المتعصـبين لـه والمتحدثين باسمه ما يكفى وزيادة، وبعضهم يرون الحديث عنه حكراً لهم ووقفـاً علـيهم. وقـد انحطت معظم الكتابات الإسلامية حتى طغت الأباطيل فيها على الحقائق. وأصبحت حديثاً معـاداً مكرراً ليس فيه جده أو إبداع أو أصالة. وقد كانت الدعوات الدينية –ولا تزال- أخصـب مجـال للاستغلال والإدعاء. ولم تستغفل الجماهير أو تتظاهر القيادات بمثل ما يحدث عن طريق الـدين. ولعل تسعة أعشار مظاهر التقوى والورع غفلة غبية أو نفاق رخيص وما أكره هذين إلى نفـس المفكر ...

والعصر بعد عصر التقدم، ورياح التغيير- بل أعاصير التغيير- تقتلع الماضي وتوجـد أوضاعاً جديدة.. ودول الشرق متخلفة.. وهي في أمس الحاجة إلى استدراك هذا التخلف بـالعلم، بالأسمنت، بالحديد، بالكفاية الإنتاجية ..

كل هذا معروف.. مفهوم.. له وزنه وثقله ...

ومع ذلك ...

فالأمر بعد- كما يقول القرآن ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب.. ﴾ ودائرة الأمـاني كلها مستبعدة بالمرة ولا يمكن للكاتب أن يحكم إرادته أو رغبته الخاصة أو ما يتمناه.. لأن القضية موضوعية تماماً، وهي تفرض نفسها وتقوم على حقائق، وقواعد وأسس، وليس علـى رغبـات وإرادات .

***

هناك ثلاثة عوامل – على الأقل - تفرض علينا الالتزام بالإسلام ...

*** فالتقدم المادي- وهو الإسهام الذي حققته الحضارة الأوربيـة الحديثـة- لا يكفـى لإسـعاد البشرية ولا يحقق سلام النفس ولابد من عقيدة إلهية كاملة مبرأة، وهذه ما يقدمها الإسلام .**

*** والإسلام وحده هو الذي يقدم أفضل صور الالتزام التي يقوم عليها مجتمع ..**

***والإسلام بعد هو أبرز مقومات الشخصية العربية، وبدونه تكون هذه الشخصية باهته سطحية بلا أعماق، ولا جذور، ولا بلورة ..**

وفي هذه الأسباب الثلاثة مقنع لمن يبغي الحقيقة.. ومن يحكم العقل لا الهوى.. ومن يغلب الإنصاف لا الإغراض .

الفصل الأول

لأن التقدم المادي- وحده- لا يكفى ..

منذ العصور الأولى للإنسان وقد قاد خطواته "إيمان" جعل له دوراً وأضفى على وجـوده طعما وأكسبه غاية.. حتى وإن لم يكن هذا الطعم سائغاً أو لم تكن الغاية هي الغاية المنشودة ...

وبفضل هذا الإيمان استطاعت الجماهير أن تتغلب على شظف الحياة، وقسوة المعيشـة.. قبل أن تظهر المطبعة والآلة لينقذاها من جهالتها وفاقتها ...

ومن السخف القول إن الإيمان لم يكن أكثر من "أفيون" الشعوب طـوال هـذه العصـور خدرها ومكنها من أن تحمل عبئها وتستسلم لقدرها ...

لأنه ما لم يكن هناك سلاح للمقاومة، وما لم يحن الوقت المناسب. فإن أية وسيلة للتحمل تعد تقدماً، وليس هناك بديل سوى الانتحار.. أو الفشل، وثورات الفلاحين التي انتظمت المجتمع الأوربي خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر وباءت بالفشل دليل على ذلك ..

والذين يقولون أفيون الشعوب.. هم أنفسهم الذين يقولون "إن الحكم على كل نظام اجتماعي وكل حركة اجتماعية في التاريخ لا ينبغي الحكم عليها من ناحية العدالة الأبدية. أو من ناحية أية فكرة أخرى مقدرة سلفاً كما يفعل المؤرخون غالباً. بل ينبغي حكمنا على أساس الظروف التي ولدت هذا النظام وهذه الحركة الاجتماعية المرتبطين بها .

إن نظام الرق في الظروف الحاضرة خرق وبدعة مضادة للطبيعة، ولكن نظام الرق في ظروف الشيوعية الأولى الآخذة في الانحلال، هو حادث مفهوم تماماً، ومنطقي، لأنه يعنى خطوة إلى الأمام بالنسبة لها" [١]

ومن المهم أن نفهم "التحمل" الذي إرتأته الأديان البشرية وقتئذ على حقيقته. فلم يكن يعنى الاستسلام الأبدي.. ولكن المطاولة والصبر، والثبات حتى تأتى اللحظة المناسبة، ولو بعد أجيال .

ومن المهم أيضاً أن نوضح أن الأديان في الوقت الذي مكنت الجماهير من التحمل والمطاولة بحيث لا تبخع نفسها، أو تدخل في معارك خاسرة فإنه كان ملزماً للقيادات حتى أعلاها -الملوك - ولم يكن غيره يستطيع ذلك. فكان الملك في أوربا يخضع للبابا كما كان السلطان في الشرق يخضع للخليفة باعتبار هذين ممثلين للإرادة الإلهية. ولم يكن البابا أو الخليفة، بدورهما، بمنأى عن النقد رغم كل هيلمانهما، وما ألصق بهما من عصمة، لأن هذا الهيلمان لم يكن شخصياً أو وراثياً، وإنما كان مستمدا من أنهما ممثلا العقيدة، فإذا جافياها تعرضا للنقد، كما حدث بالفعل في حالات عديدة جداً .

المهم في هذا كله أن الإيمان الديني زود الجماهير بطاقة من التحمل والصلابة وأودع فيها من المشاعر النفسية والعاطفية ما جعلها لا تفقد الأمل في المستقبل حتى لو كان في ملكوت السماء.. أو عند الأجيال التالية ومكنها هذا وذاك من أن تتحمل قدرها أن يتطرق إلى نفسها يأس أو تحس ضياعاً .

١. ستالين: المادية الديالكلتيكلية والمادية التاريخية ص ٢٣ .

وهذه النقطة هامة. ففي جحيم الفاقة والبأساء والجهالة أثرى الدين حياة الفقراء.. وأضـاء معيشتهم المظلمة ويسر لهم فلسفة ذات أبعاد وأعماق.. بينما لم يغن كل ثراء التكنولوجيـا خـواء النفوس. ولم يكن في كل معارف العلم مقنعاً معنوياً لجماهير العصر الحديث ...

***

وقد طويت هذه الصفحة في أوربا بظهور العصر الحديث، وتهاوى الإيمان الديني بعد أن وجهت إليه مطارق العلم الحديث وجدت عوامل وأوضاع ظن أنه قـد أصـبح معهـا غيـر ذي موضوع

فقد حقق الرخاء المادي جنة على الأرض، فلم تعد الجماهير بحاجة إلى الصبر والتحمـل والسلوى، واقتلعت الثورات السياسية الملوك من عروشه، وحددت الدسـاتير الـنظم والحقـوق والواجبات بحيث لم يعد الدين هو الذي يكبح جماح الملوك والقادة، فانكمش الإيمان الديني وأصبح شيئاً من التراث يحيا على هامش اهتمامات الناس وأصبح الدين "كنيسة" يزار ساعة كل أسبوع أو في مناسبات الزواج والوفاة ..

وخطت أوربا خطوة جديدة حاسمة عندما تفتحت لها أبواب الثورة التكنولوجية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، هذه الثورة الثانية التي جعلت الثورة الصناعية الأولى حدثاً بدائياً، توضع منتجاته في المتاحف. إذ أوجدت عمالقة الذرة وسحرة الإليكترون و "الكمبيـوتر" وأشـعة ليـزر والعدسات التليفزيونية. ووسائل الآلية التلقائية في الصناعة "الاتوميشن" وانهالت السـلع اللامعـة البراقة من كل نوع بالملايين وغصت بها البيوت بينما تجرى العربات الفارهه علـى الطرقـات اللامعة، وتشق الطيارات عنان السماء وتنزل الغواصات التي تسير بالطاقة الذرية إلـى أعمـاق الأعماق المظلمة للبحار والمحيطات. وتنطلق الصواريخ لتفلت لأول مرة مـن إسـار الجاذبيـة الأرضية وترتاد عالم الفضاء العجيب وتنزل على القمر وتذهب إلى الزهرة، وانهالـت الثـروات على الشعوب وارتفعت مستويات المعيشة ارتفاعا كبيراً وتضاعفت نسب الاستهلاك في كل شـئ حتى لقد سمى المجتمع المعاصر "المجتمع الاستهلاكي" وتقدمت فنون الاستمتاع بالأكل، والشراب، واللهو كما لم يحدث أو يتصور من قبل. ونسى الفقر باعتباره الجوع الكـافر أو العـوز المـذل وأصبح الفقير عرفاً هو من يتقاضى قرابة ألف جنيه في السنة ..

بالاختصار.. أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليهـا، وكـاد أن ينطبق عليها قول ا ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سـقفاً

من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ ..

فهل قضت البشرية لبانتها.. ووجدت جنتها، وظفرت بالسعادة المنشودة ..

لا ريب في أن كثيراً من جوانب الحياة كالصحة العامة ومستوى الثقافة وظروف السكنى والمواصلات قد تحسنت تحسناً بالغاً إذا قيست بمثيلاتها في الماضي، كما تحسنت ظروف فئـات معينة كانت مقهورة، مغبونة كالعمال والفلاحين والنساء والأطفال، ولم تعد الحياة رتيبـه كئيبـة مظلمة.. ولكن أنيقة لامعة متلألئة ...

ومع هـــــذا ..

فلم يحقق التقدم التكنولوجي ما أمله الناس منه وكانت هناك دائماً هوة كبيرة.. بين الأمـل والواقع .

مع كل استمتاع كان هناك غصة.. ومع كل تقدم كان هناك نكسة .

فعندما جعل الإنسان الأوربي الاستمتاع غايته عوقب.. بأن لا يـدرك قـط غايـة هـذا الاستمتاع، أصبح الاستمتاع نوعاً من السراب لا يكاد يبلغه حتى يفلت منه. وهي حقيقة قد تأخـذ شكل قانون الغلة المتناقصة أو قاعدة "التعود أو الزيادة" ويحسـها جيـداً المـدمنون والمـدخنون وشاربو الخمر الذين لا يلزمون القصد، ولكن يستهدفون أقصى درجات الاستمتاع. فـلا يبلغـون درجة من الاستمتاع حتى تصبح بعد مدة عـاجزة عـن إشـباعهم، ويصـبح مـن الضـروري مجاوزتها.. وهلم جراً حتى يصبح الناس أسرى دائرة مفرغة لا تنتهي قط، وهو ما يلائـم تمـام الملاءمة مجتمع الاستهلاك

وفي الوقت نفسه فإن هذا الاستمتاع ما كان يمكن أن يتحقق لو لم يعمل الناس كالآلات في المصانع في دقة بقدر ما تنال الإعجاب من الناحية الموضوعية، بقدر ما تثير الأسى من الناحيـة الإنسانية.. حتى أصبح التوتر داء العصر واصبح الاستمتاع مساء علاجاً ضروريا لكـي يمكـن إزالة التوتر صباحا..

وقد صور كاتب مصري المجتمع الأوربي في إحدى فترات ازدهاره التجـاري ورخائـه الاقتصادي، فبعد أن تحدث طويلا عن مظاهر هذا الرخاء من تعدد أنواع السلع الخ ... قال

"ولكن الأوربي رغم ذلك رجل غير سعيد، والأهواء الاجتماعية التي تعانيها أوربا تذهب بجانب ضخم من ثمرات الرخاء، فإن الأوربي الذي يعمل من الثامنة صباحاً إلى الخامسة أو السادسة بعد الظهر- عدا ساعة أو ساعة ونصف للغذاء- لا يعرف ماذا يعمل بنفسه ووقته حتى تحل ساعة النوم. ملل ويأس ثقيلان يبهظان أكتاف أولئك الناس ساعات بعد ساعات، والوسيلة الرئيسية لمحاربة الملل عندهم هي الشراب، ولم تكثر البارات ومتاجر الخمور في أوربا كما كثرت اليوم، وبلغ من أتساع توزيع بعض الأصناف كالويسكي والكونياك والشمبانيا والأنبذة العادية أن الشركات تلجأ إلى تحضيرها كيماوياً لمواجهة الطلبات المتراكمة، وإذا لم يطلب الإنسان ماركة معينة فإنهم يقدمون إليه تركيباً كيماوياً له نفس الطعم واللون والرائحة والفعل أيضاً، ويندر أن يخرج رجل أوربي من عمله إلى بيته دون أن يمر على البار أو المقهى أو النادي ليحتسى بعض الكئوس، وفي أحيان كثيرة يمتد الاحتساء إلى ساعات متأخرة، وهذا يجر إلى مالا مفر منه من رذائل أخرى.. وفي ألمانيا وإنجلترا بالذات- وبخاصة لندن- اتسع مجال الرذيلة واستشرى، وفي تحقيق بشع نشرته الباري ماتش من ثلاثة شهور تبين أن إيراد الدعارة يزيد على إيراد أضخم الشركات الفرنسية، وفي باريس وحدها ٦٠٠٠ مومس يربحن في السنة أكثر مما تربح شركة رينو للسيارات. وفي اليابان- حيث يسير الرخاء الاقتصادي مع الأمراض الاجتماعية جنباً إلى جنب- تصل أرقام تكاليف التسلية إلى مبالغ خيالية، فهناك- في طوكيو على سبيل المثال- ملهى ليلى واحد (من كثير) هو الميكادو وتعمل فيه ألف فتاه بين راقصة ومضيفة، وإيراده في الليلة الواحدة مليون ونصف مليون دولار .[1]

ولم يتحدث الكاتب عن انعكاسات هذه الحالة على الفنون والآداب، فحالة الخواء والتوتر والملل دفعت إلى صور من السلوك "اللامعقول" والشذوذ وجلد العواطف والمشاعر حتى تتحرك فبعد أن كانت صالات الموسيقى تبطن جدرانها بمواد تمتص الصوت فإنها عمدت إلى تبطينها بالألمونيوم ليضاعف الصدى، وأخذت الأفلام تقترب بدرجات من العرى حتى جاوزته وأصبحت ممارسات جنسية، ومشاهد يؤخذ معظمها في حجرات النوم، وانتقلت العدوى إلى المسرح، فأصبح الممثلون يظهرون عراة على المسرح.. وأصبحت المخدرات داء عياء ومرضاً عضالا في الولايات المتحدة، وظهرت تلك الفئات الشاذة التي تجمع الشباب الضائع التائه، وتحمل أسم "الهيبز" أو "البيتلز" أو غير ذلك ..

---

١. الأهرام - "أوربا تعود من الأجازة" للأستاذ حسين مؤنس. عدد ١٩٦٦/١٠/١٣.

تلك هي انعكاسات أمل الاستمتاع المنشود أما انعكاسات قضية التقدم الفني والإنتاجي، فلم تكن أقل مأساوية، فبقدر التقدم.. بقدر ما تظهر المشاكل الجديدة.. فهناك الانفجار السكاني الـذي يهدد الأرض بأن تضيق بسكانها، وفي الوقت نفسه الذي يبذل فيه علماء البيولوجيا الجهود لإشاعة الوسائل المقيدة للنسل، يعمل الأطباء بكل همة لتحسين الصحة وإطالة الأعمار !

وظهرت مشكلة استنزاف الموارد الطبيعية وتلويث البيئة تلويثاً وصل إلى أعماق البحـار والآثار السيئة للإشعاعات التي أصبحت قوام صناعات عديدة، وقضى التقدم التكنولـوجي علـى المنشآت الصغيرة، وجعل الهيئات الممردة وحدها هي التي تستطيع البقاء، فكأنمـا أعـاد مـرة أخرى عهد "الديناصور" والوحوش العظيمة وابتلعت هذه المنشآت الضخمة ليس فحسب الفرد، بل وأيضاً المنشآت الصغيرة والمتوسطة وقضت قضاء مبرما على الحرية الفردية، وأصبحت أخص خصوصيات الفرد مهددة بعيون تليفزيونية وآذان إليكترونية لا ترى ولا تحس .

وسرى التقدم التكنولوجي إلى صناعة الأسلحة التي بدأ منها، أو بفضـلها أول مـرة "إذ كانت الحرب العالمية الثانية هي القابلة التي أشرفت على وضعه" فظهرت أنواع مـن الأسـلحة الرهيبة التي تقشعر لها الجلود من أسلحة ميكروبية إلى أسلحة ذرية إلـى أسـلحة هيدروجينيـة وتبارت الدول الكبرى في صنعها والدخول إلى "النادي الذرى" وأوقف ذلك كله العالم علـى شـفا الانتحار النووي .

ولم يقف المسئولون عن إصلاح المجتمع الأوربي مكتوفو الأيدي.. وحاولوا العلاج بكـل الطرق التي تصوروها ..

حاولوا الإصلاح عن طريق الفنون والآداب ولكن الفنون نفسها أصبحت آلية، أصـبحت صناعة، ولم تخضع فحسب لكل سوءات وضرورات الصناعة، بل أصـبحت داعيـة وخادمـة الصناعة ووسيلتها إلى التأثير والتضليل، كما هو الحال في الصحافة والسينما، وهما أكبر وسيلتين تشكلان الرأي العام، وقد جعلتهما الصناعة مسخين دميمـين- بـل شـيطانين مـدمرين للخلـق ولمقومات وشخصية الفرد، وبذلك أصبح الدواء.. هو الداء ..

حتى الفلسفة أعلا الثقافات وأسماها وأكثرها استعصاء علـى الاسـتغلال وأقلهـا تـأثراً بالأوضاع، رأت أن عليها إما أن تسهم في المزاد.. أو أن تعتصم بأبراج السكون ..

وقد يصور تخبط أوربا في تلمس العلاج، وأنها في النهاية، وبعد اللف الطويل تعود إلـى الداء لتلتمس منه الدواء أن المستر ويلفرد جنكس المدير العام لمكتب العمل الدولي قدم إلى الدورة السابعة والخمسين لمؤتمر العمل الدولي (يونيه ٧٢) تقريراً يعد وثيقة رهيبة عما وصل إليه إفساد التقدم التكنولوجي للبيئة وإهداره للحريات وإثارته للقلق بين فئات المجتمع وأنه أوقـف البشـرية على مفترق الطرق ما بين الحياة أو الانتحار وأن الرد "لن يتوقف على المهـارة.. ولكـن علـى الحكمة.." .

ومع هذا.. فقد أطلق على تقريره عنوان "التكنولوجيا في خدمة الحريـة" فـي حـين أن الحرية هي سبب هذا البلاء. ومجد التقدم الصناعي وسبح بالآئه وأعلن أنه "لن تكون هناك عـودة إلى الطبيعة لإنسان العصر الحديث" واقترح أن يصبح التخاص من مخلفات الصناعة.. صـناعة جديدة ..

وليس تقرير مدير مكتب العمل الدولي إلا وثيقة واحدة من مئات الوثائق والكتـب التـي تخرجها المطابع صباح مساء. والكثير منها يصور ما يمكن أن تنتهي إليه الأمور لو أطلق عنـان التقدم المادي والإنتاجي دون التحكم فيه وتوجيهه. وحسبنا أن نشير إشارة مقتضبة جداً إلى كتابين من هذه الكتب ليأخذ القارئ فكرة سريعة. أولاهما كتاب الدوس هكسلى "العالم الجديد الشجاع[١] " والثاني كتاب جورج أورويل" ١٩٨٤" [٢] .

والكتاب الأول يصور لنا العالم في المستقبل البعيد شيئاً ما، وفي هـذا العـالم "يصـنع" الأطفال في معامل التفريخ، ويقسمون وهم أجنة أربعة فئات، وتكيف كل فئة بحيث تكون سـعيدة وفخورة بوضعها- حتى ولو كانت الفئة الدنيا وبذلك لا يوجد صراع الطبقات. وهذا العالم مترف بفضل التكنولوجيا الحديثة. وهو يستخدم الطائرات والصواريخ وتشـيع فيـه الـروائح العطـرة والموسيقى التي تدغدغ العواطف. والعلاقات الجنسية مشاعة حرة- كالطعام والشراب" وقد نسـى النساء عملية الولادة وأصبحت الكلمة تعبيراً بذيئاً لذكرى قديمة مهينة. وشخصية الفرد تفنى فـي شخصية الجماعة، وليس هناك مشاعر عنيفة أو آلام.. أو آمال.. أو فنون بالمعنى المفهوم وعندما يعتري البعض ضيق مؤقت فهناك حبوب "السوما" التي تكفل له أجازه سعيدة من الوعي تسـتمر مدتها تبعاً لعدد الحبات .

---

١. وقد ترجم إلى اللغة العربية بعنوان "العالم الطريف" دار الكاتب المصري .
٢. ترجمته إلى العربية دار الأديب – دمشق .

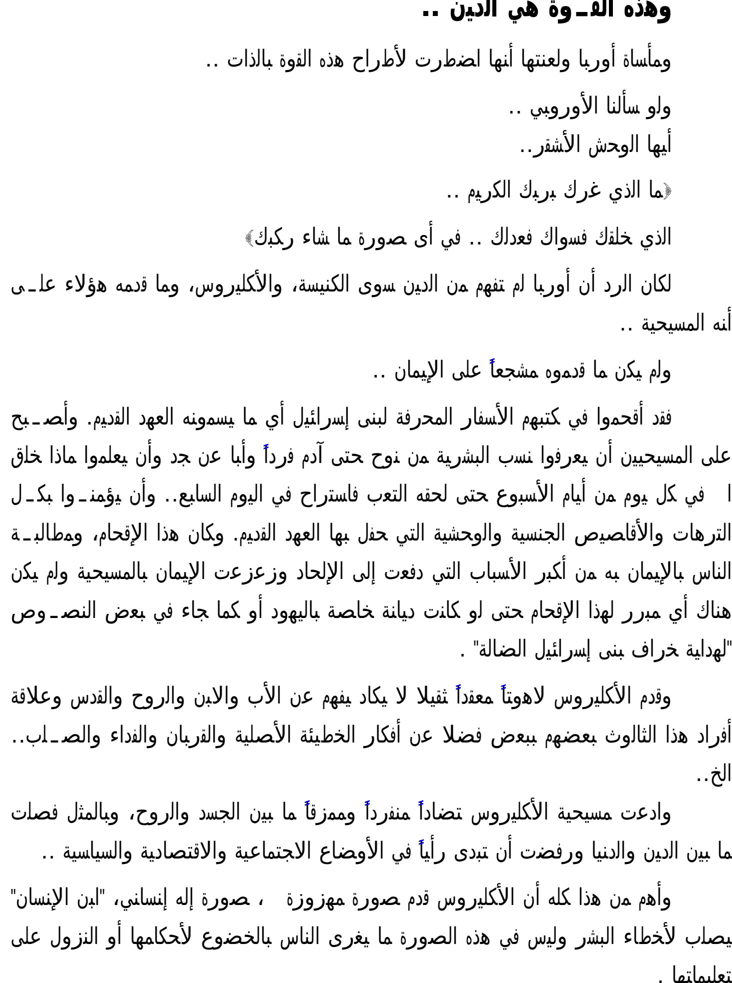
والكتاب على أغرابه، وعلى ما فيه من تجديد فإن الإضافة الحقيقية هي عـرض مشـاهد التقدم التكنولوجي.. أما أدبيات هذا المجتمع فالحق أننا نرى اصلها في جمهورية أفلاطون، وهناك خيط دقيق لا شعوري يربط هكسلى البريطاني بأفلاطون الأثينى فكل منهما يقسم دولته إلى طبقات راضية بقسمتها، والعلاقات الجنسية على الشيوع، وليس هناك انفعالات عنيفة، أو فـرد مسـتقل. والمسئول عن هذا هو عدم تعرف المجتمع الأثينى على فكرة "ا " بـالمعنى الإسـلامي وفشـل المسيحية المحرفة في أن تزود المجتمع الأوربي بها، لأن هذه الفكرة وحدها هي التي تستطيع أن تقدم السمو المعنوي الذي يجاوز، ويفوق، دائرة الاستمتاع وتعصم المجتمع من هـذا الجنـوح أو الفراغ، كما تحول دون ابتلاع المجتمع للفرد واستحواذه عليه جسماً وروحاً .

والكتاب الثاني يصور- كما ينم على ذلك اسمه- العالم سنة ١٩٨٤ حيث تتقاسم السـلطة في العالم ثلاث دول كبرى. وفي الدولة التي يتحدث عنها الكاتب يسيطر "الأخ الكبير" وفي كـل البيوت توجد لوحة تدعى "الستار الناقل" وهي كشاشة التليفزيون تنقل إلى المسئولين صورة كل ما يدور في الحجرة، ولا يمكن تعطيلها. ويقوم هذا العالم على التفكير المزدوج، أي الإيمان بالشيء ونقيضه وهكذا تكون الحرب هي السلم، والحب هو الكره، والجهل هو القوة. وتكون وزارة الحب أشبه بقلعة تحوطها الأسلاك الشائكة. وقد محي الماضي من أذهان الناس ومن الوجود قاطبة ..

وقد تبدو هذه التصورات كما لو كانت "خطرفات" أو هذيان سكير.. أو أضغاث أحـلام.. ولكن الحقيقة أنها ليست بعيده عن الحاضر لو ترك هذا العالم المجنون يمضى قـدماً. وقـد قـال هكسلى إنه لم يفعل أكثر من أن سار بالتطور القائم بالفعل خطوات إلى الأمـام، كمـا أن فكـرة التفكير المزدوج والأخ الكبير ليس إلا امتداداً لديكتاتورية ستالين ولمسخ الشيوعيين لمبدأ "الجـدل" ولجعله يقبل كل شئ حتى ولو كان يضاد نفسه. وكل من يقرأ كتابات "أرثر كوسـتلر" الشـيوعي السابق عن "الأكروبات الجدلي" وكيف كان يطوع أشد المعاني استحالة لا يستغرب ذلك. ومن ثم يكون علينا أن لا نأخذ هذه التنبؤات مأخذاً سهلا فقد تكون بالنسبة للحاضر أقرب مما كانت بوادر صناعة الطيران.. مما انتهى إليه الأمر فيها.. وإن كان كل ما يتعلق بالنفس البشرية أو المجتمـع الإنساني يكتسب تعقيداً لا يوجد في عالم الصناعة .

لا الفلسفة ولا الفنون ولا الآداب استطاعت أن توقف جائحة التقـدم التكنولـوجي وتيـار الحضارة المادية وإغراء الاستمتاع حتى **الانفجار أو الانتحار ..**

هناك قوة واحدة تستطيع ذلك ..



وهذه القـوة هي الدين ..

ومأساة أوربا ولعنتها أنها اضطرت لأطراح هذه القوة بالذات ..

ولو سألنا الأوروبي ..

أيها الوحش الأشقر..

﴿ما الذي غرك بربك الكريم ..

الذي خلقك فسواك فعدلك .. في أى صورة ما شاء ركبك﴾

لكان الرد أن أوربا لم تفهم من الدين سوى الكنيسة، والأكليروس، وما قدمه هؤلاء علـى أنه المسيحية ..

ولم يكن ما قدموه مشجعاً على الإيمان ..

فقد أقحموا في كتبهم الأسفار المحرفة لبنى إسرائيل أي ما يسمونه العهد القديم. وأصـبح على المسيحيين أن يعرفوا نسب البشرية من نوح حتى آدم فرداً وأبا عن جد وأن يعلموا ماذا خلق ا في كل يوم من أيام الأسبوع حتى لحقه التعب فاستراح في اليوم السابع.. وأن يؤمنـوا بكـل الترهات والأقاصيص الجنسية والوحشية التي حفل بها العهد القديم. وكان هذا الإقحام، ومطالبـة الناس بالإيمان به من أكبر الأسباب التي دفعت إلى الإلحاد وزعزعت الإيمان بالمسيحية ولم يكن هناك أي مبرر لهذا الإقحام حتى لو كانت ديانة خاصة باليهود أو كما جاء في بعض النصـوص "لهداية خراف بنى إسرائيل الضالة" .

وقدم الأكليروس لاهوتاً معقداً ثقيلا لا يكاد يفهم عن الأب والابن والروح والقدس وعلاقة أفراد هذا الثالوث بعضهم ببعض فضلا عن أفكار الخطيئة الأصلية والقربان والفداء والصـلب.. الخ..

وادعت مسيحية الأكليروس تضاداً منفرداً وممزقاً ما بين الجسد والروح، وبالمثل فصلت ما بين الدين والدنيا ورفضت أن تبدى رأياً في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ..

وأهم من هذا كله أن الأكليروس قدم صورة مهزوزة ، صورة إله إنساني، "ابن الإنسان" يصاب لأخطاء البشر وليس في هذه الصورة ما يغرى الناس بالخضوع لأحكامها أو النزول على تعليماتها .

وهذا هو السبب في أن أوربا تجاهلت المسيحية كقوة مؤثرة في الإصلاح أو مهيمنة على النفوس، لأن الإله الإنساني لابد وأن يكون أسير التصور الإنساني، فينظر الناس إلى ا كأنه "إله ديمقراطي دستوري يتعاون معنا على قدم المساواة" كما ذكر مؤلف كتاب "فشل الـ وثني الطيـ ب" ويستطرد الكاتب فيقول "إن أي واحد يقرأ المقالات الدينية التي تظهر عادة في صحف الأحد يألف تعبيرات مثل "إن ربي يجب أن . ." أو "أنا لا أقبل إلها يكون.." [1] وتحدث آخر عـ ن المسـ يحية الليبرالية "التي تحتفظ بكليات الدين وتهمل جوهره" وألف هذا الأخير كتابا يثبت فيه "أن أعظـ ـ م الأخطاء التي أرتكبها المجتمع البشري خلال القـ رون الأربعة الأخيرة، والنتائج الوخيمـ ة التـ ي ترتبت على هذا الخطأ هي أن الإنسان- وليس ا - وضع في صـ دارة الكـ ون- **ولـ ن يمكـ ن للحضارة أن تخاص من الكوارث التي تلاحقها إلا عندما تصحح هذا الخطأ** " [2] .

ومن المؤسف أن معظم المفكرين الذين لمسوا هذا النقص لم يستطيعوا التوصل إلى الحل، وداروا هم أيضاً في الحلقة المفرغة- لأن النور الوحيد الذي يمكن أن يهديهم في هـ ذه المتاهـ ة المظلمة هو الإسلام، وقد أحيط بستار حديدي آونة أو بطبقـ ة سـ ميكة عازلـ ة مـ ن الـ دعايات المسمومة. بحيث أن الذين تنبهوا إلى أصالة الإسلام نظروا إليه من زاوية مغرضة، وقد يصـ ور ذلك ما جاء في كتاب وضعه أستاذ بجامعة ليدز كإجابة لاهوتية على تحدي الإسلام" إن علينـ ا أن نشكر ا لأن الهدف الذي من اجله أظهر الإسلام قد قارب- بعد ثلاثة عشـ ر قرنـ اً- التحقيـ ق وأعنى به أن يوضح لنا خطأنا في فهم الإيمان الذي ندعو إليه، والناموس الذي نبشر به[3] "

ولكن المؤلف لا يشكر للإسلام هذا أو يعترف له بفضيلته "لأنه يرى "إن الحقيقة هـ ي أن الإسلام من أول يوم حتى الآن، كان أعظم عقبة تجاه المسيحية والعدو لحقيقة المسيح" .

نتيجة لرفض أوربا الصورة المشوهة التي عرضتها الكنيسة، ولجهلها للصورة السـ ليمة التي يقدمها الإسلام آثر الإنسان الأوربي أن يكون الابن الحرام للصدفة الشرود عن أن يكون ولى العهد على عرش أكذوبة مدعاة. فاعتقد في التطور، وتصور أن مـ ن الممكن أن تكون الحياة قـ د بدأت على الأرض عشوائية "عندما اندمجت منذ بليونين من السنين بعض الهنات البدائيـ ة الحيـ ة لتؤلف خلية، أي كيان دقيق يحتوى نواة معلقة في قطرة من سائل يحيط بها غشاء ونشأت عن هذا الحدث الارتقائي الضخم وبسرعة نسبية الكائنات الأحادية الخلية .

---

١. فشل الوثني الطيب ص ٨٦ .
٢. زهرة العشب ص ٨ .
١. رد ثيولوجى على تحدى الإسلام ص ٧ .

وعلى ممر القرون على هذه الخلايا التي أخذ بعضها يختلف عن بعض فيما يكتسب مـن خواص رأت أن من الخير لها أن تأتلف على مبدأ "تقاسم العمل" حتى يكمل بعضها بعضـاً مـن حيث الخصائص التي تنقص كل منها فرادى. وبهذه الطريقة ظهرت إلى الوجود طلائع الكائنـات المتعددة الخلايا " .

ومرة أخرى استطاعت هذه الكائنات أن تتغلب بمرور ملايين السنين على عقبات عديـدة بعضها يتعلق بالأكسجين وبعضها يتعلق بالقلب أو المخ أو الأعصاب حتى أمكن أخيراً أن تظهـر أدنى الكائنات الحيوانية .

ومرة ثالثة، رحلة طويلة عبر ملايين السنين أيضا من أدنى الكائنـات الحيوانيـة حتـى أرقاها- الإنسان [1] ".

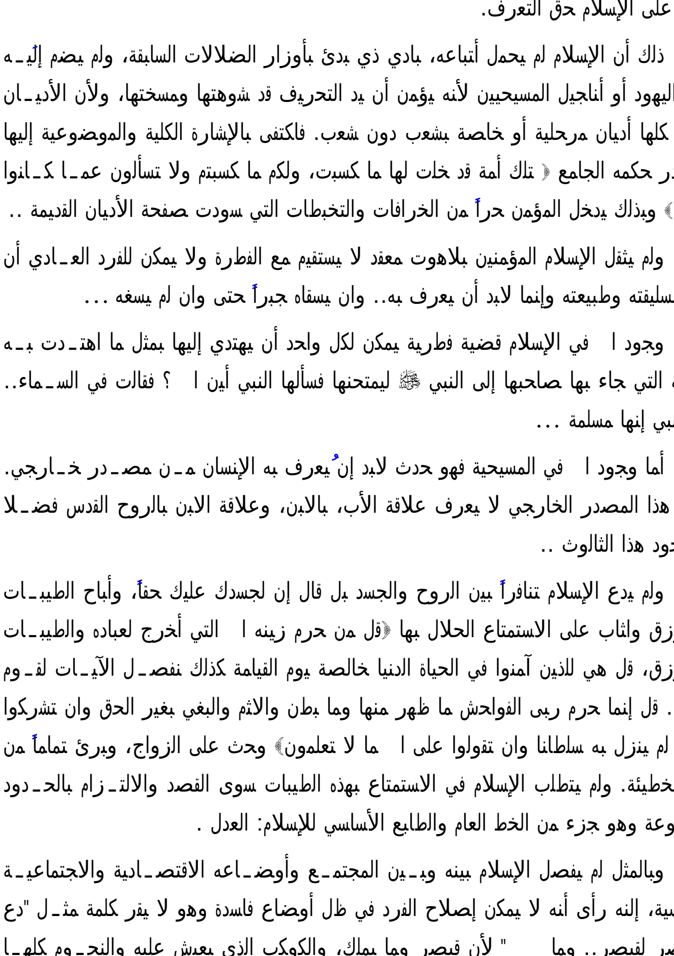
آثر الإنسان الأوربي كل هذه الرحلات الافتراضية الطويلة الملايين مـن السـنين، فـي ظلمات الغيب، يلفها الغموض من كل ناحية، ولا تنقذها أو تكمل لهـا المسـيرة إلا الصـدف أو الفروض لأنها كانت –رغم كل هذا- أفضل من التثليث المسيحى، ولأنها أقرب إلى الاحتمـالات فى حين أن التثليث المسيحى أقرب إلى الاستحالات. وقد لخص هذه المحنة التي ابتلى بها الضمير الأوربي تـلك المناظرة المشهورة ما بين هكسلى وويلبر فورس عن التطـور العلمـي والخلـق المسيحي، ففي المناظرة سأل ويلبر فورس هكسلى.. أي نوع من القرود قد تحدر منه ؟ فأجـاب هكسلى إنه يفضل أن يكون قرداً عن أن يمسخ الحقيقة .

وعندما أخذ الإنسان الأوربي بالتطور بدلا من الخلق.. كانت تلك هي البداية في حياته الحديثة. لقد استعاد حريته الوثنية القديمة التي ورثها عـن اليونـان والرومـان وأصبح إلهه هواه. وانطلق فاتحاً كل أشرعة الرغبات والأهـواء والنـزوات والإرادات وطلعات العقل والقلب ليرتاد المحيطات السبعة ..

وفي النهاية وجد انه يدور حول نفسه وأنه أصبح يعيش ليأكل، لا يأكل ليعيش.. وان كل كفاحه النبيل قد حصر ما بين الإنتاج والاستهلاك. .

يقنع.. وأن لا يشبع ...

١. تصوير الدكتور كريستيان برنارد بجريدة الأهرام العدد ١٩٧٢/٨/٢ .



وكما أشرنا فإن هـذه هي مأساة الإنسان الأوربي وهي مأساة كان يمكن أن لا تحدث لو تعرف على الإسلام حق التعرف.

ذلك أن الإسلام لم يحمل أتباعه، بادي ذي بدئ بأوزار الضلالات السابقة، ولم يضم إليه أسفار اليهود أو أناجيل المسيحيين لأنه يؤمن أن يد التحريف قد شوهتها ومسختها، ولأن الأديان السابقة كلها أديان مرحلية أو خاصة بشعب دون شعب. فاكتفى بالإشارة الكلية والموضوعية إليها ثم أصدر حكمه الجامع ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت، ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ وبذلك يدخل المؤمن حراً من الخرافات والتخبطات التي سودت صفحة الأديان القديمة ..

ولم يثقل الإسلام المؤمنين بلاهوت معقد لا يستقيم مع الفطرة ولا يمكن للفرد العادي أن يفهمه بسليقته وطبيعته وإنما لابد أن يعرف به.. وان يسقاه جبراً حتى وان لم يسغه ...

وجود ا في الإسلام قضية فطرية يمكن لكل واحد أن يهتدي إليها بمثل ما اهتدت به الجارية التي جاء بها صاحبها إلى النبي ﷺ ليمتحنها فسألها النبي أين ا ؟ فقالت في السماء.. فقال النبي إنها مسلمة ...

أما وجود ا في المسيحية فهو حدث لابد إن يُعرف به الإنسان من مصدر خارجي. وبدون هذا المصدر الخارجي لا يعرف علاقة الأب، بالابن، وعلاقة الابن بالروح القدس فضلا عن وجود هذا الثالوث ..

ولم يدع الإسلام تنافراً بين الروح والجسد بل قال إن لجسدك عليك حقاً، وأباح الطيبات من الرزق واثاب على الاستمتاع الحلال بها ﴿قل من حرم زينه ا التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون. قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا با ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على ا ما لا تعلمون﴾ وحث على الزواج، وبرئ تماماً من عقدة الخطيئة. ولم يتطلب الإسلام في الاستمتاع بهذه الطيبات سوى القصد والالتزام بالحدود الموضوعة وهو جزء من الخط العام والطابع الأساسي للإسلام: العدل .

وبالمثل لم يفصل الإسلام بينه وبين المجتمع وأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، إلنه رأى أنه لا يمكن إصلاح الفرد في ظل أوضاع فاسدة وهو لا يقر كلمة مثل "دع ما لقيصر لقيصر.. وما " لأن قيصر وما يملك، والكوكب الذي يعيش عليه والنجوم كلها

والسماوات في قبضة ا ، ومن ثم فقد وضع القواعد الأساسية لصلاح المجتمع ولتحقيـق العـدل فيه.

وأهم من هذا كله . . .

أن الصورة التي قدمها الإسلام ، والتي أراد بها أن يعين الفطرة السليمة حتى لا تنحرف بها الأهواء كانت من القوة والكمال والشمول والتجرد والموضوعية والحياة بحيث تلـزم الفـرد الامتثال والالتزام. وقصارى ما يمكن أن يقال عنها هنا- لأننا سنعود إلى هذه النقطة عند الحديث عن عقيدة الإسلام- أن هذه الصورة ترضى الجماهير وتقنع الفلاسفة، وان فيها أقصـى الكمـال الموضوعي والمطلق جنباً إلى جنب أقصى درجات الحياة والإرادة والقوة. وان العقول تهتدي إليه بحاستها.. دون أن تدرك كنهه أو تبلغ شأوه .

والدليل الذي يسوقه الإسلام للبرهنة على وجود ا . وصفاته الباهرة. هو آياتـه وخلقـه ومشاهد الحياة والموت والسموات والإسلام والحيوان والنبات والنجوم والنظـام العجيـب الـذي يضمها جميعاً. وما من كتاب سماوي آخر يسامى القرآن في بعده عـن الأقاصـيص الذاتيـة أو التفاصيل أو المحاولات اللاهوتية وتركيزه على المشاهد الكونية. وقـد ذكـرت كلمتـا السـماء والأرض ومشتقاتهما في القرآن حوالي ٧٦٥ مرة.. في حين ذكرت كلمة ا ٩٨٠ مرة .

وهذا الاستدلال إلى جانب أنه أقوى استدلال يمكن أن يساق في هذا الصدد، فإنـه يكفـل نوعاً من معايشة هذه الأكوان الشمسية والممالك الحيوانية والنباتية التي خلقها ا وجعلهـا أممـاً مثلنا تسبح بحمده وسخر بعضها لنا وكتب علينا الإحسان نحوها .

وفي النهاية، فإن الإسلام لا يجعل الحياة تنتهي بالموت. إن هذه الحياة هي الحياة الـدنيا، وهناك الحياة الأخرى الباقية.. وبرهان القرآن عليها هو نفسه برهان الخالق. فمن يستطيع الخـالق بادئ ذي بدء يستطيع البعث بعد الموت. ولم يعن دين من الأديان بهذه القضية كما عنى الإسلام، والإيمان بها لا يجعل الموت شبحاً مخيفاً رهيباً.. ولا الحياة عبثاً أجوف لا معنى له. إنهـا كلهـا ترتبط بالمعاني الكبرى التي يعرضها الإسلام.. سواء كانت خاصة بالمجتمع الإنساني أو قضـايا الخلود والإرادة الإلهية ...

بهذه الوسيلة يوجد الإسلام غائية إلهية للوجود إنسانياً وكونياً وتعايشاً ما بين الإنسان وبيئته، وسلاماً ما بين النوازع التي تسيطر على النفس، وعدلا في المجتمع، وعالمية بين الأمم التي تجمعها عقيدة ا .. ولا يتصور مع هذا أن يحس الإنسان ضياعاً أو اغتراباً.

وفضلا عن ذلك فإن هذا الوجود الإسلامي والسلام الذي ينشره الإسلام في النفس والمجتمع لا يتميز بسلبية عقيمة كما هو في الحضارة البوذية والهندية ولا بعدوانية كما في الحضارة الأوربية. ولكنه يتسم بديناميكية ما بين الخير والشر، والإسلام يؤمن بإمكان انتصار الخير، إذا تحكم الإنسان في نوازعه.. وسلك النهج الذي رسمه ا له ..

وقبل أن ننهى هذا الفصل الذي وجدنا فيه أن التقدم الأوربي بكل منجزاته لم يكف لإسعاد البشرية، وأن له انعكاساته الخطيرة التي تهدد مصير الإنسانية.. فهناك شبهتان لابد من تفنيدهما . ..

الأولى أننا لا نعارض ولا نضيق بالتقدم المادي ولا ننكر فضله العميم على الحياة من مقاومة للأمراض وتحسين لظروف الإسكان والانتقال والاتصال وإشاعة الثقافة من كتاب أو سينما أو تليفزيون الخ.. إن الجمال، والأناقة والزينة والاستمتاع كلها من النعم التي نشكر ا عليها. وهي من خصائص الحياة الإنسانية، ومما أباحه الإسلام للمؤمنين .

إن محل النقد أمران: الأول السرف والشطط واطلاق العنان للنزوات بحيث يجاوز التقدم حده وينقلب إلى ضده، وإساءة استخدام هذه النعم أو استغلالها في الشر. **والثاني** أن التقدم المادي وحده لا يكفى أبداً لملء الحياة الإنسانية.. فالاستمتاع بمفرده لا يوجد إنساناً، ولكنه يوجد حيواناً مترفاً.. وبحق قارن القرآن بين هؤلاء المتمتعين والحيوان.. ﴿يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام﴾ ولا تتأتى الإضافة المطلوبة بالنسبة للجماهير والجماعات والحقيقة الكلية بالفنون أو الآداب أو الفلسفات فقد أوضحنا إفلاسها وقصورها **ولكن بالدين وحده الذي يلمس الروح..** ويربطها بالسماء، وبا رمز الموضوعية والحقيقة المطلقة والكمال الأسمى.. والقوه المبدعة والخالقة. وبقدر ما يحتفظ الدين بأصالته ويبتعد عن التحريف بقدر ما يحقق رسالته الفريدة. وهذا ما لم يتوفر إلا للإسلام بالذات. وأي دين لا يعترف بالإله الأعظم المطلق ولا يقوم عليه يكون لعبة في يد الإرادة الإنسانية بضعفها وقصورها، وأي دين لا يرتب ثواباً وعقاباً في عالم آخر على ما يفعله الإنسان في الدنيا لا يستحق أن يسمى ديناً، لأن الاشتقاق اللغوي لكلمة "دين" يتضمن الجزاء... وأجدر بمثل هذا الدين أن يسمى نظرية، أو مذهب أو أي تعبير آخر .

والشبهة الثانية أن المجتمعات العربية مجتمعات متخلفة وأن معظم سكانها يعيشون تحـت مستوى الحاجة، ويقضون حياتهم في معاناة قاسية وحرمان مهين، ولا يزال الشوط أمامهم طويلا قبل أن يصلوا إلى التقدم المجنون أو المحموم الذي وصلت إليه أوربا التكنولوجية. ونحـن نسـلم بهذا، ونؤمن أن على الشعوب والمجتمعات العربية أن تشمر عن ساعد العمل... مع ذلك فإن من المهم جداً أن نضع ما جاء في هذا الفصل نصب أعيننا، لأن البريق المتألق والفتنة الأخاذة للحياة الأوربية وما تحفل به من مغريات ومظاهر تجعل هذا النوع من الحيـاة مـثلا أعـلا للمثقفـين العصريين ويورثهم ذلك شعوراً بالنقص تجاه حياتهم وأوضاعهم، وليس هناك ما هو أسوأ من أن نجمع ما بين الفاقة المادية والمهانة النفسية، وهذا حاصل الآن، والشـاهد عليـه هـذا الجنـون بالمستوردات والإقبال على الأفلام والأغاني والموسيقي الأجنبية رغم بعـدها عـن لغـة وذوق العربي والتهافت على الرحلات واعتبار السفر إلى أوربا... كالسفر إلى الجنة .

فإذا تفهمنا هذا الفصل فسنضع الحضارة الأوربية موضـعها السـليم. وسـنعترف لهـا بحسناتها، كما سنلم بسوءاتها. وسنعلم أنه وإن كان علينا أن نعمل بجد ورصانة لتحسين الظروف المادية، إلا أن نمط الحياة الأوربية ليس بالنمط الذي يرتضيه، فضلا عـن أن يتمنـاه، المسـلم. فالمسلم لا يغبط الأوربي على آلياته، وما يأكل أو يشرب أو يستمتع. وبقدر إيمانه القلبي بالإسلام بقدر ما يكون رثائه للأوربي، لأن مثله الأعلى أعظم من الأكل والشرب والاستمتاع. إنه تنميـة ملكات النفس من خلق.. وعدل. وأمانة وقصد، وأن يصل نفسه بذلك العالم العلوي النبيل- عـالم ا - بالفكر والتأمل، وبقدر ما يحقق المسلم ذلك بقدر ما يفضل الأوربي في مقاييس "السوبر مان" الحقيقي وبقدر ما يكتسب ذلك، السمت الخاص به، وبقدر.. ما يتفهم هذه الآية ﴿قـل بفضـل ا وبرحمته فبذلك فليفرحوا، هو خير مما يجمعون﴾ ٥٨ يونس .

***

وخلاصة الفصل أن المجتمع الأوربي عندما جعل التقدم المادي وحده هدفه حقق بالفعـل ثورة في رفع مستوى المعيشة والاستهلاك والاستمتاع، ولكن ذلك نفسه جعله لا يشبع قـط، فـلا ينتهي من تقدم حتى يبدأ في آخر وأوقعه ذلك في حلقة مفرغة جعلته عبـدها الـدائم لا سـيدها الحاكم، كذلك حكم عليه بأن يكون سياق هذا التقدم حثيثاً بل محموماً بحيـث أصـبح التـوتر داء العصر والسرعة طابعه الأساسى. وأدى هذا بدوره إلى نوع من السطحية- فلا يكاد الفرد الحديث مثلا يقرأ قراءة جادة، لأن القراءة الجادة ليست استمتاعاً، فهي ليست هدفاً، كما أنها تستغرق وقتاً

طويلا وبذلك تخالف طابع العصر، فلا يبقى عليها إلا بقدر الضرورة، وتحـل محلهـا الأخبـار الخفيفة، والمقتطفات المختصرة، والصور .

ومن العوامل الكبيرة التي دفعت المجتمع الأوربي الحديث إلـى هـذا الاتجـاه تشـويه الأكليروس الأوربي للفكرة السليمة ، بما حرفه من تثليث وتشخيص للإله. فأبعد كل المفكـرين عن الإيمان با ، وهو نقطة البداية السليمة في الاتجاه واضطروا إلى أن يؤمنوا بـالتطور الـذي ليس له غاية مرسومة، وعندما فقدوا الغائية الإلهية، لم يعد سوى الغائية الإنسانية التي تتجلى في الاستمتاع. وبهذا بدأت الحلقة المفرغة التي يتخبط العالم الحديث فيها رغـم ثرائـه الفـاحش، أو بسبب ثرائه الفاحش. ولو تعرف المجتمع الحديث على الإسلام وفكرة ا فيه لكان في ذلك إنقاذه، ولكن الأكليروس فرض حصاراً على الإسلام بحيث جهله المجتمع الأوربي الحديث ..

إذا كان الأمر كذلك فلا يعقل أن نقع نحن الذين أنعم ا علينا بالإسلام في خطـأ أوربـا المميت فنجعل التقدم المادي وحده هدفنا، وليس ذلك بعد أمر تفرضه العقيدة، ولكنه كـذلك الحـل الوحيد الذي يفرضه الواقع. لأننا لو جعلنا التقدم المادي وحده هدفنا، فلن نصـل إلـى المسـتوى الأوربي وفي الوقت نفسه سنخسر إسلامنا ومثلنا العليا، في حين أننا لو التزمنا بالإسـلام حقـاً، وبلغنا درجة وسطى من التقدم لأصبح مجتمعنا أفضل من المجتمع الأوربي، وذلـك فـي دائـرة الإمكانيات ..

الفصل الثانى

لأن الإسلام أفضل صور الالتزام الاجتماعي

لابد لقيام المجتمع وبقائه وانتظامه من وجود صور من صور الالتزام يمتثل لهـا النـاس فتحدد الحقوق والواجبات، وتدور عليها العلاقات ما بين الفرد والجماعة. الجماهير والقيـادات.. وتصبح في مجال العلاقات الاجتماعية كالعملة في مجال التعامل.. أو اللغة في مجال التخاطب .

وبقدر ما تكون هذه الصورة سليمة، واضحة، محددة بقدر ما يؤمن بها الناس ويحترمونها ويأخذون أنفسهم بها. وبقدر ما تمتد منطقة تطبيق هذا الالتزام بحيث تمضى العلاقات بين آحـاد

الناس أو فئات المجتمع مضياً ناعماً سليماً.. دون تضارب أو تخبط أو تـضاد. ويكتسب المجتمع الاستقرار والانتظام ...

وإذا كانت عقدة الالتزام مبهمة أو غامضة أو متعسفة أو فضفاضة فإن إيمان الناس بهـا يصبح عشوائياً أو اجتهادياً أو ظنياً ويتفاوت لدى مجموعة من الناس عما هـو لـدى مجموعـة أخرى. ولا يكون هناك التحديد، أو النعومة أو المضـي السـليم.. وإنمـا الفوضـى والتخـبط والتضارب.. وتصبح البلد في مجال العلاقات كما لو كانت المجموعة تتحدث بلغـات عديـدة أو تتعامل بعملات مختلفة ...

ولو استعرضنا صور الالتزام التي تقوم عليها العلاقات وتترابط بهـا المجتمعـات فمـن الممكن أن نميز بين ثلاث فصائل من الالتزام. **الأولى** الالتزام القسري والتقليدي الذي ساد العـالم القديم. ويمكن أن يلحق به الالتزام الذي يسود مجتمعات النظم الشمولية. **والثانية** الالتـزام القـائم على فكرة الضمير الإنساني **والثالثة** الالتزام الناشئ عن الأديان، ونجد أسمى صـورة لـه فـي الإسلام ...

ففي المجتمع القديم لم يكن الالتزام مطلوباً إلا من مجموعات محدودة من المجتمع تترابط بفضل هذا الالتزام وتحكم بالقوة القاهرة المجتمع المفكك. وقد يصور هذا الالتزام الرباط الذي كان يربط الجندي الروماني بروما. فذلك الإيمان القوي بروما وسيادتها، وأنها لا تقهر، كـان ينـتظم الجيش الروماني قادة وجنوداً ويعطيه قوة وفدائية.. وبفضل هذا الجيش قهرت روما العالم القـديم وأخضعته لحكمها وحققت سلاماً يقوم على السيف، فروح الالتزام التي تغلغلت في أعماق الجندي الروماني، وما أنبثق عن هذه الروح من نظم كانت كافية لعـدة قـرون لضـبط العـالم القـديم والإمبراطورية الرومانية ..

ونجد مثالا آخر لهذا الالتزام العسكري في تلك الفرقة العسكرية التي ظلت رعب أوربـا حتى تحلل التزامها إلا وهي "الانكشارية" التي كانت تتكون من أطفـال مـن مجهـولي الأبـاء والأمهات يربون تربية عسكرية ولا يعرفون أبا أو أما أو التزاماً إلا الدولة.. وإلا الحـرب فـي سبيل الدولة واستطاعت تركيا بفضل الانكشارية أن تكتسح أوربا، كما استطاعت روما أن تكتسح العالم القديم بفضل الحرس البريتورى .

وفي القرون الوسيطة لم يعد الالتزام عسكرياً خالصاً. وإن أحتفظ بطابعه القسري واتسعت دائرته إلى حد ما، فانتظمت مجموعات من الأهالي أو السكان، وليس الجـيش وحـده وأصـبح يكتسب قوته لا من القهر العسكري، ولكن من التقليد المتوارث المعزز بالأمر الواقع.. وكان يأخذ شكل الاعتراف بالسيادة من الأصاغر للأكابر وإضفاء الأكابر الحماية على الأصاغر. فكان العامة يلتزمون بطاعة النبلاء والتسليم لهم بالسيادة، وكان النبلاء يلتزمـون بحمايـة العامـة وتـأمين معيشتهم، وبالمثل كان الأبناء يعترفون بسيادة الأباء ويعيشون تحت كنفهم حتى بعـد أن يتـزوج هؤلاء الأبناء ويصبحوا آباء ...

ويمكن أن نلحق بهذه الصورة من الالتزام القسري القديم صورة حديثة لالتـزام قسـري نجده في الدول التي تأخذ بالنظم الديكتاتورية الشمولية، ففي هذه الدول يوجد حزب وحيـد حـاكم يصبح بمثابة الحرس البريتورى بالنسبة لروما أو الانكشارية بالنسبة للدولة العثمانية مـع تفرقـة هامة هي أن هذين كانا يسلطان على الخارج أو يكلفان بالحماية العسكرية، في حين أن الحـزب الوحيد الحاكم يكون حرساً أهلياً يعمل لحماية النظام في الداخل. وعضو هذا الحزب يربى تربيـة صارمة ويخضع لمران لا يقل عن الضبط والربط العسكري وينحصر ولاؤه في الحزب، وبهـذه الطريقة يصبح التجسيد الحي لإرادة الحزب. يعمل لها ويكفل تطبيقها، ومع أنه يسـتخدم أساسـاً الإقناع والدعوة، إلا أن جانب القسر والإرهاب غير مستبعد، فهو البديل الوحيد، فعضو الحـزب جندي مدني "على ما في ذلك من مفارقة" يعمل لغاية مذهبية في الداخل وليس للحماية العسـكرية من الخارج .

ومن الواضح أن الحقيقة الأساسية في هذه الصور من الالتزام هي أنهـا لا تـنظم كـل الأفراد، وإنما بعض الأفراد، وأنها تعتمد على القهر والقسر سواء كان ذلك بطريقة صريحة معلنة أو بطريقة مضمرة مقنّعة، وأنها بحكم الوحدة التي تنتج عن هذا الالتزام تكتسب قوة تمكنها مـن الهيمنة على الكثرة المفرقة والجماهير المشتتة .

وعندما بدأت ظروف الشعوب تتحسن وتساقطت القيود القديمة وانتشر التعلـيم وأخـذت شخصية "الفرد" تتبلور، ظهرت فكرة "الواجب" الذي ينبع من إيمان الفرد بما يجب عليه القيام بـه بحكم هذا الواجب لا انتظاراً لثواب أو خشية من عقاب وأدى هذا إلى ظهور "الضـمير الفـردي" ونجد أفضل تمثيل لفكرة الواجب في كتابات الفيلسوف الألماني "كانط" .

وتعمقت فكرة الواجب في المجتمع الأوربي، وأصبحت محوراً من محاور التربيـة فـي المنزل والمدرسة، وتعود إليها أكثر من غيرها صفات الإتقان والإخلاص والدقة التي يتسـم بهـا الأداء الفردي في المجتمع الأوربي الحديث سواء قام بهذا الأداء ممرضة أو عامل أو مـدرس أو أي مهني آخر. وأمكن بذلك لتلك الهيئة الضخمة المعقدة- المجتمع الحديث- أن تسير بكثير مـن النعومة والنجاح، فهناك أمانة في المعاملة وصدق ودقة في المواعيد ووفاء بالتعهدات إلى جانـب التخلص من كل العقد ومركبات النقص التي تورثها التربية الخاطئة أو البيئة الذليلة الفقيرة ..

ومع هذا فإن فكرة الواجب، والضمير القائم عليها تعرضت لهزات وتطـويرات عديـدة ومستمرة لم تكف بأن تنتقص من أطرافه، أو من درجة الإيمان به.. ولكن أيضاً من صميم الفكرة نفسها ومنطقة اختصاصها.. وأساس قيامها. لأن الفكرة قائمة على أساس مـن فلسـفة اجتهاديـة تخضع وتتطور تبعاً لعدد كبير من العوامل، فبعد **فلسفة "كانط" التي تبنى الواجب علـى المبـدأ، ظهرت الفلسفة النفعية التي تعيد الواجب إلى المنفعة، ثم فلسفة الـذرائع "البراجمـاتزم" التـي سلمت إلى حد كبير بأن الغاية تبرر الوسيلة، ثم ظهرت الفلسفة الاشتراكية التي لاشت -نظريـاً وعملياً- الإرادة الفردية- وبالتالي الواجب القائم على الاقتناع النفسي، ثم ظهرت كرد فعل لهـا الفلسفات الوجودية التي لا تعترف إلا بإرادة الفرد وحريته فيما يلزم نفسه به .**

وانعكست هذه التطورات على فكرة الواجب، فأصابتها بتدهور كبير قد يصوره ما انتهت إليه فكرة الواجب في بريطانيا- وهي أبرز بلد تقدس الواجب- من العهد الفيكتورى حتى الوقـت الحاضر (قرابة مائة سنة). كما كان هناك مأخذ ووجوه نقص في الفكرة نفسها تمثل في صور من المفارقات ما كان يمكن أن توجد لو كانت الفكرة كاملة وسليمة .

فالحق أن نقطة الضعف في الضمير الفردي هي نفسها مصدر قوته، وأعنى بها فرديتـه، فهذا الضمير ينبثق من الفرد نفسه، من فكرته عن التصرف الواجب سواء كان اتقانا أو إبداعاً أو إخلاصاً أو دقة. ولكن هذه الفكرة لا تقوم على عقيدة أو دين أو نظريـة أو معيـار موضـوعي ينصب على العلاقات الاجتماعية. وبهذا التخريج وحده نفهم كيف سـاغ للضـمير الأوربـي أن يرتكب تلك الكبائر والموبقات التي تتضمن فيما تتضمنه الاستغلال الوحشي للأطفال والنساء فـي مستهل الثورة الصناعية، والاستنزاف الرهيب لموارد وثروات المستعمرات، وما أوقعه الأوربيون من جرائم ومنكرات أسهمت فيها الشعوب الأوربية كلها حتى آخرها دخـولا ميـدان الاسـتعمار كإيطاليا وألمانيا طوال القرن التاسع عشر واستهدفت آسيا وأفريقيا على حد سواء، كما أن الإنسان

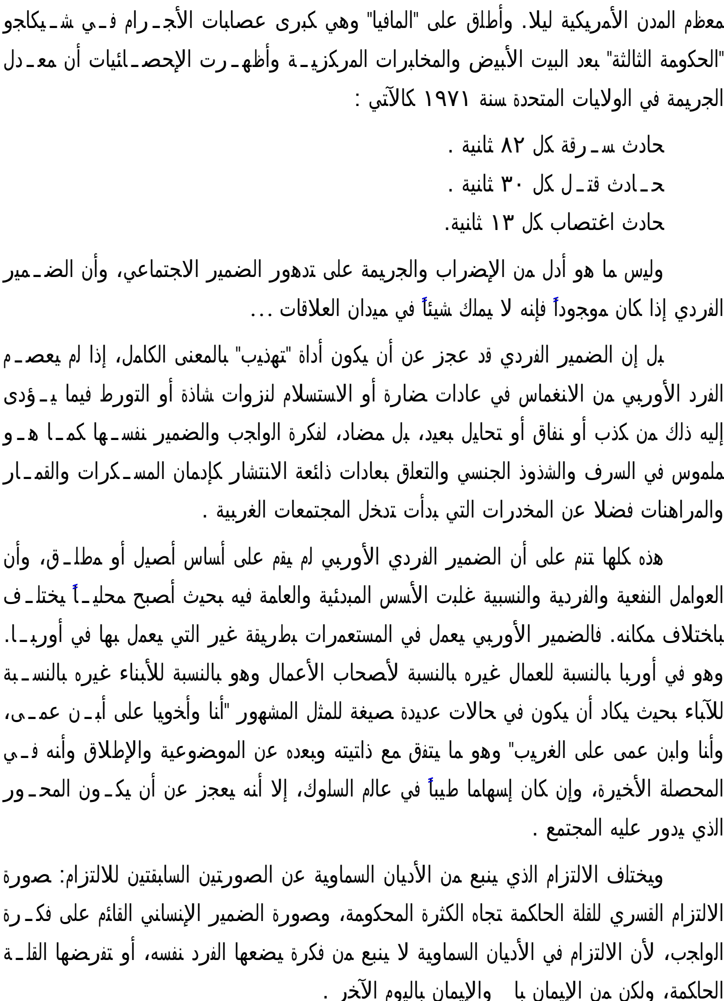
يعجز عن أن يسيغ كيف أن هذا الضمير تقبل معاملة الأجناس الملونة معاملة مهينـة. ووضـع، لمجرد اللون، تلك الحواجز التي تحول دون تقدمها. وهناك فقرة حاول مفكر من أكبر المفكـرين الأوربيين هو مونتسكيو أن يبرر بها استغلال الأجناس الأوربية. وجاءت في كتابه الشهير "روح القوانين" .

"إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيداً فـأنى أقـول إن شعوب أوربا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم تر بداً من أن تستعبد شعوب أفريقيا لكي تستخدمها في استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة. والشعوب المـذكورة مـا هـي إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس، وأنفها أفطس فطساً شنيعاً بحيث يكاد يكون من المستحيل أن ترثى لها، ولا يمكن للمرء أن يتصور أن ا سبحانه وتعالى – وهو ذو الحكمة السامية - قد وضع روحاً - وعلى الأخص روحاً طيبة - فـي جسـم حالك السواد" [1] .

وفي داخل المجتمع الأوربي نفسه تمزق الاضطرابات وحدة الشعب، وتوجـد مـا يشـبه الحرب الأهلية الصناعية وتعرض عامة الشعب لصعوبات ومشاق لا حد لها وتهوى بالاقتصـاد القومي. فإضراب عمال مناجم الفحم في بريطانيا الذي استمر بضعة أسابيع في النصف الأول من عام ١٩٧٢ شل الحياة تماماً، وأوقف القطارات والمواصلات وجعل الناس تعـيش علـى ضـوء الشموع! ثم أنتهي بتعويم الجنية الإسترليني. وإضراب عمال الموانى في أواخر يوليـه وأوائـل أغسطس سنة ١٩٧٢ أوقع خسائر بواقع ١٢٠٠ جنيه لكل يوم تقضيه كل سفينة شحن متعطلـة. وقد عطل الإضراب خمسمائة سفينة على الأقل لمدة أسبوعين فضلا عن خسائر الأخـرى التبعية ...

وفي أمريكا تنتشر الجريمة وتستشري وتأخذ الطابع التنظيمي الذي تأخذه الهيئات العامة، ومن هنا يطلق عليها "**الجريمة المنظمة**" أسوة بالنقابات أو الأحزاب أو الكنائس، فتوجد عصابات لها مجالس إدارات وفروع وأجهزة وهي تضع خططها بدقة مستعينة بالفنيين والخبراء، بالإضافة إلى الجريمة التلقائية والعشوائية التي وإن لم تكن في أهمية أو خطورة الجريمة المنظمة، إلا أنها زادت زيادة كبيرة مع زيادة التصرفات اللامعقولة والشذوذ والسادية التي تضرمها مشاهد العنـف والتعذيب في الروايات السينمائية بحيث أصبح من العسير أن تأمن النساء السير بمفـردهن فـي

١. الكتاب الخامس من الفصل الخامس. روح القوانين. استشهد بها الدكتور محمد عوض في كتابه "الاستعمار والمذاهب الاستعمارية" ص ٤١ .



معظم المدن الأمريكية ليلا. وأطلق على "المافيا" وهي كبرى عصابات الأجرام في شيكاجو "الحكومة الثالثة" بعد البيت الأبيض والمخابرات المركزية وأظهرت الإحصائيات أن معدل الجريمة في الولايات المتحدة سنة ١٩٧١ كالآتي :

حادث سرقة كل ٨٢ ثانية .

حادث قتل كل ٣٠ ثانية .

حادث اغتصاب كل ١٣ ثانية.

وليس ما هو أدل من الإضراب والجريمة على تدهور الضمير الاجتماعي، وأن الضمير الفردي إذا كان موجوداً فإنه لا يملك شيئاً في ميدان العلاقات ...

بل إن الضمير الفردي قد عجز عن أن يكون أداة "تهذيب" بالمعنى الكامل، إذا لم يعصم الفرد الأوربي من الانغماس في عادات ضارة أو الاستسلام لنزوات شاذة أو التورط فيما يؤدى إليه ذلك من كذب أو نفاق أو تحايل بعيد، بل مضاد، لفكرة الواجب والضمير نفسها كما هو ملموس في السرف والشذوذ الجنسي والتعلق بعادات ذائعة الانتشار كإدمان المسكرات والقمار والمراهنات فضلا عن المخدرات التي بدأت تدخل المجتمعات الغربية .

هذه كلها تنم على أن الضمير الفردي الأوربي لم يقم على أساس أصيل أو مطلق، وأن العوامل النفعية والفردية والنسبية غلبت الأسس المبدئية والعامة فيه بحيث أصبح محلياً يختلف باختلاف مكانه. فالضمير الأوربي يعمل في المستعمرات بطريقة غير التي يعمل بها في أوربا. وهو في أوربا بالنسبة للعمال غيره بالنسبة لأصحاب الأعمال وهو بالنسبة للأبناء غيره بالنسبة للآباء بحيث يكاد أن يكون في حالات عديدة صيغة للمثل المشهور "أنا وأخويا على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب" وهو ما يتفق مع ذاتيته وبعده عن الموضوعية والإطلاق وأنه في المحصلة الأخيرة، وإن كان إسهاما طيباً في عالم السلوك، إلا أنه يعجز عن أن يكون المحور الذي يدور عليه المجتمع .

ويختلف الالتزام الذي ينبع من الأديان السماوية عن الصورتين السابقتين للالتزام: صورة الالتزام القسري للقلة الحاكمة تجاه الكثرة المحكومة، وصورة الضمير الإنساني القائم على فكرة الواجب، لأن الالتزام في الأديان السماوية لا ينبع من فكرة يضعها الفرد نفسه، أو تفرضها القلة الحاكمة، ولكن من الإيمان با والإيمان باليوم الآخر .

فالإيمان بوجود إله سماوي (تفرقة عن الآلهة الوثنية) قوى، قادر، كامل يكشف عن المثل الأعلى ويعطى قبساً لما يجب أن تكون عليه التصرفات والأعمال والعلاقات والقـيم، أو يكـون كمرآة تعكس شعاعاً من أشعة تلك الشمس الباهرة ينم عن أصلها العظيم، وبقدر عبقرية الدين فى تصوير ا ، بقدر ما ينعكس ذلك الضمير. فإذا كان الإنسان لا يرى ا ومع هـذا فإنـه يلتـزم بتعليماته... وينفذ توجهاته فإن هذا هو ما يوجد بذرة الضمير .

وبالنسبة للضمير بالذات. فإن للإيمان باليوم الآخر أثراً لا يقل عن أثر فكرة ا نفسـها، حتى وان كانت فكرة اليوم الآخر مبنية على فكرة ا ، لان إرجاء الحساب على الأعمـال عقابـاً وثواباً إلى يوم لا يأتي إلا بعد الموت أبعد عملياً فكرة الثواب والعقاب طوال الحياة الدنيا وأضفى عليها الطبيعة المبدئية بقدر ما أبعد عنها الطبيعة النفعية (رجاء الثواب أو خوف العقاب) ووجـد بذلك الضمير ومن ثم جاز لبريستد أن يطلق على تاريخه لمصر القديمة "فجر الضمير" لأن الديانة المصرية القديمة تكاد تكون الديانة الوحيدة التي تسامى الإسلام فـي الاحتفـال بـاليوم الآخـر والحساب والعقاب وهى الأولى والسابقة فى هذا المجال ..

ويستتبع بناء الضمير على فكرة ا واليوم الأخر، وليس على فكـرة الواجـب أو القاـة الحاكمة، اختلافاً في طبيعة الالتزام الصادر عن كل منهما ينسحب على بناء ووظيفة ومنطقة نفوذ وتطبيق هذا الالتزام. فقد رأينا أن فكرة الواجب لم تستطع أن تثمر إلا ضميراً فردياً، لأن الأسس التي قامت عليها ذاتية ووضعية واجتهادية ولم تكن أبداً حتى في أفضل أيامها موضوعية كاملـة الموضوعية، من أجل هذا ظهرت تلك العيوب الجسيمة في الضمير الفردي التي أشـرنا إليهـا، والتي أبرزها عدم الشمول لجانب العلاقات والأوضاع العامـة، وافتقـاد الموضـوعية الحقيقيـة وبالتالي تعرضه للتقلبات وتأثره بالتغييرات، وأخيراً فشله في مجاله الخاص – نفس الفرد- عـن إيجاد وازع تهذيبي يقوى على صدور الشرور والأثام أو مقاومة إغراء صنوف الاستمتاع الشـاذ التي سمحت بها فكره الحرية التي قام عليها المجتمع الديمقراطي، وأتاحها التقدم المذهل في صنع وإشاعة وسائل اللهو .

ويبرأ الضمير الذي يقوم على فكرة ا واليوم الآخر من هذه العيوب كلها. ونجد أفضـل صوره لهذا الضمير، وبالتالي الالتزام، في الإسلام بالذات لما تيسر له من عوامل خاصة ...

ففكرة ا في الإسلام وصلت من الوضوح والقوة، والنقاء والكمال درجه لم يبلغها أي دين آخر على ما أشرنا إليه في الفصل الماضي، وما سنعود إليه في الباب القادم .

وفكرة اليوم الآخر لم تتعمق في دين سماوي كما تعمقت في الإسلام، وقد أوضحنا أن هذه الفكرة هي المسئولة عن تحويل مبرر الأداء من المبرر النفعي إلى المبرر المبدئي، أو العقيدى ...

وعزز هذا التحويل أن الإسلام لا يعترف باكليروس ولا يبيح وصاية على الضمير من أي نوع وبذلك أصبح هذا الضمير موصولا با مباشرة .

وأخيراً.. فإن الطابع الأساسي للإسلام هو العدل ..

وهذه نقطة تحتاج إلى بعض إيضاح ..

فمع أن الديانات السماوية واحدة في جوهرها، إلا أن إرادة ا التي اقتضت نزول أكثـر من دين، وأكثر من نبي، اقتضت أن يكون لكل دين طابع رئيسي يمثل أصدق تمثيـل الاحتيـاج الأساسي للذين نزل إليهم هذا الدين في الفترة المعينة لنزوله. فاليهودية مثلا قامت وسط الوثنيـة المصرية العريقة، وأنزلت لبني إسرائيل المستعبدين، ومن هنـا كـان طابعهـا الأساسـي هـو "الصرامة" ليحول دون تأثر هذا الجنس الذليل بمظاهر الوثنية المصرية، أو يصـاب بالاسـتخذاء أمام الاستعباد الفرعوني.. وبهذه الصرامة نجحت الديانة اليهودية أن تكون رسالة إنقاذ وتحرير ..

ولكن بنى إسرائيل القساة المحرفين لم يخرجوا من نير الفراعنة إلا ليدخلوا في نير روما، الذي كان أقوى واعتي من النير المصري. ولزم الأمر تحريراً جديداً على يد المسـيحية، ولكـن بأسلوب مختلف استبعد المقاومة المسلحة أو القوة أو الفرار.. لأن بطش الرومان فاق كـل حـد، وشمل الأرض بأسرها وقتئذ، وكان الانتصار الممكن هو عن طريق اللاعنف الذي يأخـذ أعـلا صوره في "الحب"، ومرة أخرى انتصرت المسيحية بسلمها وحبها على الإمبراطورية الرومانيـة بسلاحها وعتادها.. وخيلها ورجلها ..

أما الإسلام، فقد أملى الطابع الرئيسي له أمران : **الأول** الشمول الذي أتسم بـه الإسـلام، وأنه يعالج كافة مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعبادية.. وأنـه أنـزل لكـل الشعوب ولكل الأجناس. **والثـاني** أنه آخر الأديان، فلا رسالة بعده. وقضى هـذان العـاملان أن يكون الطابع الرئيسي للإسلام هو العدل لأنه فضيلة الفضائل، والفضـيلة الاجتماعيـة.. فضـيلة الجماهير والقيادات.. وهو الذي يضع كل عامل في مكانه السليم.

فالصرامة التي اتسمت بها اليهودية لا تصلح إلا لجنس معين، في ظرف معين، ولكنهـا ليست مركب كل يوم.. وكل حال..

وفي الطرف المقابل -الحب المسيحي- إنه أيضاً حالة طارئة، أو مثل أعلا.. ولكنه ليس الدأب الدائم أو المعيار الذي تقاس به التصرفات أو تدور عليه الأمور.. ولا هو مما يمكن أن نطالب به الناس. ولو كان ممكنا، فليس هو بالمبدأ الأمثل لأنه يعتمد على ملكات العواطف والأحاسيس والمشاعر أكثر من ملكات التفكير النزيه المحايد .

وقد يذكر البعض مبادئ أخرى، كالحرية مثلا، ولكن الحرية دون عدالة لا تعني إلا انتصار الأقوياء سواء كانت هذه القوة قوة جسد أو مال أو حكم.. وسواء جاءت هذه القوة عن طريق الاستحقاق أو الإرث أو الحظ أو الحيلة أو الخداع.. وقد أظهرت تجربة المجتمع الأوربي للحرية سوءاتها في المجالين الاقتصادي والسياسي على سواء [1] ..

قد يقال "المساواة"، ولكن المساواة لا تكون إلا في الفرصة أو عند خط البداية، أما إذا سوينا بين الناس في كل شئ فسنظلم البعض.. وسنحابى البعض، ولن يكون هذا من المساواة في شئ !

إن أي واحد يمارس العمل الإداري أو الاجتماعي أو السياسي. أو يلم بطبيعة النظم والنفوس البشرية يكاد يشعر بالتقزز عندما يسمع تلك الكلمات ذات الطنين الأجوف التي لا يراد بها إلا الاستهلاك المحلى أو استرضاء المشاعر أو التضليل والخداع، ويستبين صدق صيحة مدام رولان عندما اقتيدت لتعدم باسم الشعارات التي عملت لها: الحرية.. الإخاء.. المساواة .

ليس إلا العدل.. وحده .

فالعدل هو التوازن في الفضائل، ووضع كل فضيلة في مكانها، أما أي فضيلة واحدة فإنها "طرف" في القضية الاجتماعية بكل ما في أي طرف من ميل أو اتجاه أو تحيز ..

وقد يتصور البعض أن العدل يكون على حساب الحرية..
ولكن هذا لا يستقيم، ويكون نوعاً من المغالطة.

لأن العدل يتضمن بداهة العدل في الفضائل، فلا يتصور العدوان على إحداها. ولو حدث لما كان عدلا .

من أجل هذا قلنا، وسنقول دائما، إن الرأي والفكر والعقيدة يقع في مجال الحرية ..

---

١. أنتهى تفكيرنا إلى أن العدالة أحوج إلى الحرية من حاجة الحرية إلى العدالة، والحرية فى الإسلام مفترضة فى مبدأ البراءة الأصلية الفطرية، وتأتى العدالة بضبطها ..

أما الاقتصاد والإنتاج والأموال فتخضع للتنظيم وهذا ما نسميه بالعدل ويوجـب القـرآن اتباع العدل في أسلوب بلغ الغاية من القوة والوضوح ﴿وأمرت لأعدل بيـنكم﴾ {١٥ الشـورى}. ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ {٥٨ النساء}. ﴿ولا يجرمنكم شنآن قـوم علـى أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ {١٨ المائدة}. ﴿إن ا يأمر بالعدل والإحسـان﴾ {٩٠ النحـل}. ﴿وإن خفتم أن لا تعدلوا.. فواحدة﴾ {٣ النساء}. ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ {١٣٥ النساء} .

وقد يستخدم القرآن كلمة القسط المرادفة للعدل وكأنما يريد أن يؤكد معنى العـدل بلفـظ آخر، وقد يستخدم تعبير "الميزان" ليصور عملية العدل. أو يضع معياراً دقيقاً غاية في الدقة "مثقال ذرة" حتى يرسخ المعنى في الأذهان .

﴿شهد ا أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط﴾ {١٨ آل عمـران}. ﴿وإن حكمت بينهم فاحكم بالقسط إن ا يحب المقسطين﴾ {٤٢ المائدة}. ﴿يا أيها الـذين آمنـوا كونـوا قوامين بالقسط شهداء ولو على أنفسكم أو الوالـدين والاقـربين ﴾ {١٣٥ النسـاء}. ﴿ونضـع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا﴾ {٤٧ الأنبياء}. ﴿وأنزلنا معهم الكتاب والميـزان ليقوم الناس بالقسط﴾ ٢٥ الحديد. ﴿ا الذي انزل الكتاب بالحق والميزان﴾ {١١٧ الشورى}. ﴿فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط، وهم لا يظلمون﴾ {٤٧ يونس} .

وأظهر من هذا في إبراز العدالة الاستنكار الغليظ للظلم، وقد تعددت استنكارات القـرآن للظلم، وكافة مشتقات الكلمة – وبلغت هذه الاستنكارات أكثر من ٢٨٠ مرة. وكما سـما ا عـز وجل نفسه العدل، فأنه حرم على نفسه الظلم ﴿إن ا لا يظلم مثقـال ذرة﴾ ﴿إن ا لـيس بظـلام للعبيد﴾ واستبعد الظلم يوم القيامة ﴿ولا تظلمون فتيلا﴾ ﴿ولا يظلمون نقيرا﴾ ﴿ولا يظلمـون شـيئاً﴾ ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت، لا ظلم اليوم﴾ وأعتبر الظلم معادلا للشرك وسبباً في العذاب أو التحريم ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ ﴿يا بنى لا تشرك با . إن الشرك لظلم عظيم﴾ ﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن ا ليغفر لهم﴾ ﴿فقطع دابر الذين ظلموا والحمـد ا رب العالمين﴾ .

وتعددت الأحاديث النبوية في هذا المعنى "الظلم ظلمات يوم القيامة" "اتق دعوة المظلـوم فانه ليس بينها وبين ا حجاب" "عدل ساعة خير من عبادة ستين عاما" .

وهذه الإشارات كلها تـوضح أن العدل في الإسلام أعظم مما قد يفهمه البعض، إنه ليس عدالة اقتصادية، أو حتى عدالة الجزاء والحكم فحسب، ولكنه أساساً منهج فـي الحيـاة والطـابع

الرئيسي للإسلام الذي تتسم به كل الأوامر والنواهي والتصرفات الإسلامية بحيث تكتسب القصـد والتوازن، وتبعد عن السرف والشطط في كل ناحية، حتى الدين نفسه ﴿فأوغل فيه برفق﴾ وحتـى عندما لا تبدو هناك فائدة نفعية كالأمر بالاقتصاد في الوضوء ﴿وإن كنت على نهر جار﴾. وفـي سبيل العدل حرم الإسلام كل صور الميول الشاذة والمسرفة، وأغلق الباب على كـل مـا يفـتح المجال للسرف والشطط فحرم الخمر والميسر لأن لهما سورة وضراوة تذهب بالقصد والاعتـدال ولأن بابهما إذا فتح، فإن من العسير إغلاقه ..

وأينما قلبت النظر في الإسلام وجدت معنى العدل غالبا على ما عداه، فهناك عدل حتـى بين الأديان بعضها بعضا، وهناك عدل ما بين الفرد والمجتمع، وعدل بين الدنيا والدين وعدل بين الرجال والنساء وعدل بين الأغنياء والفقراء والحاكمين والمحكومين، بل بالعدل قامت السـموات والأرض، وا تعالى يسمى نفسه العدل .

قد يقول قائل إن نظرية العدل قديمة، نجد أصولها في فلسفة أرسطو. فالشجاعة وسط بين التهور والجبن، والكرم وسط بين التبذير والبخل. الخ.. والعقل هو الذي يعين الوسط. والنقص في هذه النظرية هو أن أرسطو – كمدرسة العقليين من فلاسفة الإغريق- ارجع تحديد الوسـط إلـى العقل، ومع أن ذلك يعين ولاشك على التحديد، إلا أن العقل في مجال الأخلاق والفضـائل لـيس الأداة الوحيدة أو المحكمة، فعقول الأفراد تتفاوت، وحتى إذا أدركت المكان السليم فإنها تعجز عن حمل الإنسان على الوقوف عند هذا الموقف، لأن الإنسان مركب من غرائز وعواطف وهو يعيش وسط مجتمع وظروف وبيئات متباينة تؤثر إلى حد كبير على العقل الفردي الذي ليس هو بالطبيعة أو الضرورة أخلاقيا. وهذا هو النقص الأساسي في نظرية المعرفة لسقراط، فقد اعتقد سقراط أنه ما أن يعرف الإنسان الخير والشر ويميز بينهما حتى يفعل الخير ويجتنب الشر. ولكن الحقيقـة، كما هو معلوم، أنه لا يكفى قط أن يعرف الإنسان الخير والشر (إذا كان من الممكـن أن يعـرف تماماً) ليفعل الأول ويجتنب الثاني. ومن هنا كان مـن الضـروري أن يضـع الـدين الأسـس الموضوعية والدائمة للخير والشر وأن يكل إلى الضمير تعرف هذا الموقف وتفهمه، لأنه قد يكون أقدر من العقل على تلمسه والاهتداء إليه، ولم يكن عبثا أن يستخدم القرآن كلمة قلـب أو قلـوب مكان عقل أو عقول ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بهـا﴾ {١٧٩ الأعـراف}. ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار

ولكن تعمى القلوب التي بالصدور﴾ {٤٦ الحج}. ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ {٢٤ محمد}. وقد قال النبي ﷺ "الإثم ما حاك في صدرك" وقال "استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك".

من أجل هذا لا يدع الإسلام عملية "التعديل" أو الوصول إلى العدل للضمير الفردى وحده، ولا يتركها تائهة.. ضائعة، ولا هو يحدد نقطة الوسط الحسابية التي تلزمهـا اسـتاتيكية جامـدة، ولكنه يوجهها الوجهة التي تنتهي إلى العدل فعلا ويضع على طريقها معالم تؤدى بها إليه .

ومن ناحية أخرى فإن الإسلام يلطف هذا التحري للعدل بالحث على العفو عند الإسـاءة، وقبول التوبة عند الندم على المعصية، والزيادة على ما يوجبه العدل، والرحمة عند القدرة. وهي كلها تلطف من صرامة العدل عندما يتطلب الأمر ذلك. ولكن الإسلام لا يفرض فرضاً هذا الفضل لأنه لن يصبح فضلا، ولكن عدلا، ولن يكون لمن يؤثره الميزة الخاصة المستمدة مـن تجـاوزه لدائرة العدل احتساباً وقربى ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على ا ..﴾ {٤٠ الشـورى}. ﴿وإن تعفـوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ {٢٣٧ البقرة}. ﴿وإن تعفوا وتصـفحوا وتغفـروا فـإن ا غفور رحيم﴾ {١٤ التغابن}. ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ {٣٠ فاطر}. ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل ا وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر ا لكم وا غفور رحيم﴾ {٣٢ النور}.

وهكذا نرى أن الإسلام يوجب التزاماً يجمع بين كل "الكمالات" المتصورة فهو :

*** ينبثق عن إيمان با واليوم الآخر، أي أنه يرد من مصدر يمثـل الحقيقـة الموضـوعية والكمال والثبات ولا يقوم على أسس ذاتية، وضعية، متقلبة .**

*** وفي الوقت نفسه فإن هذا الإيمان ليس مفروضاً بقوة قـاهرة أو سـلطة خارجيـة ولكنـه الاقتناع والاختيار والتطوع .**

*** كما أن طابعه الأساسي هو العدل، وهو أصدق وأفضل طابع لالتزام اجتماعي .**

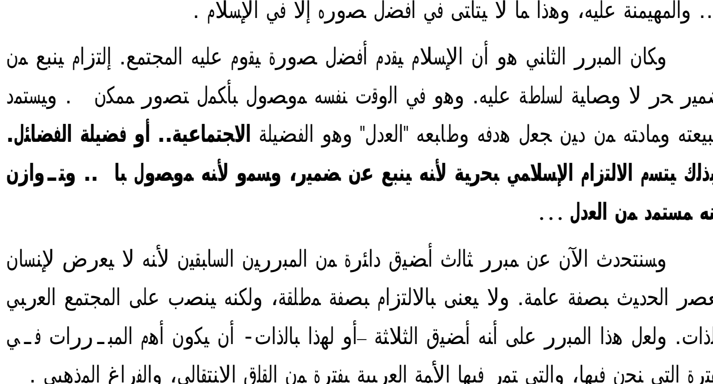
*** ولما كان للإسلام مثله العليا، فإنه يحث على العفو سلباً، والفضل إيجاباً. أي الارتفاع درجة فوق مستوى العدل، وبذلك يفتح الباب أمام الذين دائماً يؤثرون الفضل دون أن يكـون هنـاك لوم على الذين لا يسمحون بغير العدل .**

- - - - - -

الفصل الثالث

لأن الإسلام أبرز مقومات الشخصية العربية

كان المبرر الأول الذي أوردناه للإيمان بالإسلام هو أن التقدم المادي لم يحقـق لإنسـان العصر الحديث السعادة المنشودة، بل إنه أشعره الغربة والضياع وجعل معيشته قسمة ما بين توتر الإنتاج واجترار الاستمتاع وقضى على سلام نفسه وغائية وجوده، ولا شفاء لهذا كله إلا بإيمـان يجاوز الاستمتاع المادي ويشبع التسامي الروحي ويربط الوجود المادي بعالم القيم ويحقق نوعـاً من التعايش والتناغم بينه وبين الكون من أرض وسماوات ونجوم ويصله بالقوة العظيمة الخالقـة



له.. والمهيمنة عليه، وهذا ما لا يتأتى في أفضل صوره إلا في الإسلام .

وكان المبرر الثاني هو أن الإسلام يقدم أفضل صورة يقوم عليه المجتمع. إلتزام ينبع من ضمير حر لا وصاية لسلطة عليه. وهو في الوقت نفسه موصول بأكمل تصور ممكن . ويستمد طبيعته ومادته من دين جعل هدفه وطابعه "العدل" وهو الفضيلة **الاجتماعية.. أو فضيلة الفضائل. وبذلك يتسم الالتزام الإسلامي بحرية لأنه ينبع عن ضمير، وسمو لأنه موصول با .. وتـوازن لأنه مستمد من العدل** ...

وسنتحدث الآن عن مبرر ثالث أضيق دائرة من المبررين السابقين لأنه لا يعرض لإنسان العصر الحديث بصفة عامة. ولا يعنى بالالتزام بصفة مطلقة، ولكنه ينصب على المجتمع العربي بالذات. ولعل هذا المبرر على أنه أضيق الثلاثة -أو لهذا بالذات- أن يكون أهم المبـررات فـي الفترة التي نحن فيها، والتي تمر فيها الأمة العربية بفترة من القلق الانتقالي، والفراغ المذهبي .

ومن البدائه المعروفة أن الأمة لا تكون أمة إلا عندما تتوفر لها شخصيتها الخاصة بها والمميزة لها، وأن هذه الشخصية بدورها تتكون من مجموعة "مقومات" تكون بمثابة القسـمات والمعالم التي تميز شخصية عن أخرى.. وشأن الأمم في هذا شأن الأفراد، بل الأشياء أيضاً .

إن ركاماً متناثراً من الأحجار لا يمكن أن يسمى بناءاً، وإن مسيلا ضحلا دون عمـق أو غاية لا يمكن أن يسمى نهراً، وإن ثلاثين أو خمسين مليونا من الأفراد.. لا يمكن أن يكونوا أمه

لابد للأحجار أن تشذب وتهذب وتأخذ شكلا واحداً ثم يحفر لها أساس ويرتفع على هـذا الأساس وطبقاً له أدوار متماسكة.. حتى يتكون ما يسمى بناء. ولابد أن يكون للمياه منبع تنبع منه، ومصب تصب فيه ومجرى تنحته وتعمقه يوماً بعد يوم في سطح الأرض حتى يوجد النهر، ولابد أيضاً من مقومات تميز الثلاثين أو الخمسين مليوناً وروابط تربطهم وتوحد بيـنهم حتـى يصبحوا أمة واحدة، وليس مدلولا حسابيا ...

وما هي هذه المقومات .. ؟

لقد ارتأى علماء الاجتماع أنها وحدة الأرض والجنس واللغة والدين والمصلحة والتـراث والتاريخ، ولكنهم يختلفون اختلافاً كبيراً حول أهمية كل عامل من هذه العوامل في تكوين الأمـة ودرجة أولويته بين بقية العوامل. فذهب دوركيم ومجموعة من العلماء الفرنسيين إلى أن الدين هو محور الظواهر الاجتماعية وأهمها على الإطلاق وذهب أخرون إلى أن ٧٥% مـن حضـارة أي مجتمع يكون أساسها الدين. وممن يرون ذلك أيضاً توينبى الذي يؤمن أن العامـل الـذي يضـم المجتمع في إطار واحد ليس الوحدة القومية أو السياسية أو الجنس، ولكنه عبادة مشتركة أو دين .

وذهبت المدرسة الألمانية إلى أن اللغة هي أبرز مقومات الأمة ..

وادعت النازية أن الجنس، ممثلا في الدم. هو العنصر الفعال في تكوين الأمـة. وقـاوم معظم العلماء هذا الرأي وفندوه وشنوا عليه غارة شعواء رغم أن صدى هذه النظريـة لا يـزال يتردد فيما تقوم به كل الأجناس الأوربية والأمريكية من تفرقة عنصرية ..

ولا ريب في أهمية "الأرض" فهي الوعاء الذي يضم الأمة، والتربة التي تنميهـا وتـؤثر عليها. ومع هذا فقد وجدت مجموعات فقدت لسبب أو لآخر أرضها. ولكنها لم تفقد شخصيتها، أو حتى قوميتها، لأن عوامل أخرى كاللغة والدين والتراث القديم جمعت بينها، كما يحدث أن تتـأثر الأرض تبعاً للمقومات وتخضع لها بحيث لا يستطيع الجبل الأشم أو النهر العميق أو الصـحراء

الشاسعة أن تقطع الروابط الأخرى، أي أن المقومات هي التي تحدد الأرض أكثـر ممـا تحـدد الأرض المقومات ..

وهناك المصلحة المشتركة، ولكن المصلحة كثيراً ما تكون عامل تفريق لا عامل تجميـع، فضلا عن توحيد، فقد كانت مصلحة الولايات الجنوبية غير مصلحة الولايات الشمالية، وأدى ذلك إلى الانشقاق وكانت الحرب التي استمرت أربعة أعوام كاملة هي "البوتقة" التي وحدت الولايات . ..

فالمصلحة التي تجمع الأسرة هي نفسها المصلحة التي تفرق الأسرة بحيث يتركها الأبناء عندما يكبرون ويتزوجون ..

ورأينا الخاص أن العامل الأساسي والأول في تكوين الأمة هو التاريخ، فالأمـة تتكـون تاريخياً أكثر مما تتكون جغرافياً أو جنسياً. أو مصلحياً، لأن التاريخ بمثابة بوتقة، والبوتقة هـي التي تصهر الآحاد وتذهب الاختلافات وتخرج "سبيكة" خالصة.. لا تجد جزءاً منها يختلـف عـن جزء، لأن أي عنصر من عناصر الاختلاف قد ذاب في المجموع وذهب أثره المحدود في السبيكة كلها، وهو "أي التاريخ" بمثابة الجذور التي تمسك الشجرة، بقدر ما يمضى عليها الوقت، بقدر ما تتغلغل عميقاً في الأرض، ويصبح من العسير زعزعتها فضلا عـن اقتلاعهـا، **وروح التـاريخ الإنساني هي العقيدة** الدينية، فهي بمثابة "المعامل" الذي تدور عليه، وبه أحداث التاريخ .

وبالنسبة للأمة العربية، فإن عمقها التاريخي يزيد على ألف وثلاثمائة سنة، هو تاريخهـا الإسلامي. أما جوهر هذا التاريخ فهو العقيدة الإسلامية، وما أثارته هذه العقيدة من قضايا سياسية واجتماعية وفكرية، وهو لا ينفى أن للأمة العربية قبل هذا عمقاً يكمن في منطقة اللاوعي، وهـو بدوره لا يختلف عن التاريخ الواعي من ناحية أنه تكون تكويناً تاريخياً حول عقائد دينيـة كانـت تمثل الصورة البدائية غير المصقولة أو المهذبة للفكرة الدينية.. وقد واصلت هذه العقائد التطـور حتى وصلت إلى صورتها الأخيرة، والكاملة في الإسلام .

هذا هو رأينا الخاص. ولكننا حتى لو أخذنا بأي نظرية من النظريات المختلفة في مقومات الأمة. فستكون نهاية المطاف الإسلام، وذلك لخاصية فريدة تميز بها الإسلام بالذات هي أنه كمـا سنرى جماع اللغة والتاريخ بحيث يكون هو المبلور لشخصية الأمة العربية والمعامـل لتاريخهـا وحضارتها. . . وهو أمر لا يكاد يكون فرضاً يراد له الإثبات قدر ما هـو حقيقـة لا ينقصـها إلا الإيضاح والتبيان .

ففى كل الدول العربية سواء كانت مصر القديمة أو فينيقية "سوريا" أو أشور أو بابـل، أو حتى جزيرة العرب، كان الدين هو قوام المجتمع وجذره.. هو ملهم الفنان، هو مرجع التشـريع، هو أصل السلطة، هو نبع السلوك والآداب والتقاليد.. وبحق قال شوقي:

فإذا قيل ما مفاخر مصر قيل فيها إيزيسها الغراء

ولكن الدين في العصور القديمة على أهميته، وعلى أنه طبع خلال هذه المرحلة شخصية المصري، والأشورى، والفينيقي وكون "لا شعور" كل واحد من هؤلاء، فإنه كان بالنسبة للمنطقـة كوحدة عامل تفريق لا عامل تجميع، لأن آلهة المصريين كانت غير آلهة الفينيقيين، وآلهة هؤلاء كانت غير آلهة الآشوريين. ولم تنجح المسيحية في تصحيح هذا الوضع أولا لأنها لم تضـم كـل سكان المنطقة. وثانيا لأن الوقت لم ينفسح لها طويلا، فقد تمسك المصـريون القـدماء وغيـرهم بدياناتهم القديمة طويلا ولم يكد يؤمن معظمهم – وليس كلهم - بالمسيحية ويؤثرون فيها أكثر مما يتأثرون بها حتى فجأهم الإسلام. ومن الحقائق المعروفة أن المصريين تمسكوا بالديانات الوثنيـة وخاصة ديانة إيزيس حتى القرن الخامس بعد الميلاد. وعندما تلقت الوثنية المصـرية الضـربة المميتة بصدور مرسوم الإمبراطور المسيحي ثيودوسيوس (٣٧٩-٣٩٥ م) بحظرهـا، وانهـال بطريرك الإسكندرية تاوفيلاس واتباعه على المعابد، وتفرق الكهنة المصريون في البلاد، وخاصة الجنوب حيث واصلوا عبادتهم القديمة وبقى تمثال إيزيس قائماً في جزيرة فيلية في حماية أسلاف النوبيين حتى تمكن أسقف أسوان تيودورس في حكم الإمبراطور يوستنيانوس (٥٢٧-٥٦٥م) من تنكيس الصنم وتحويل المعبد إلى كنيسة [1] فلم تكن المسيحية بالراسخة عندما جاء عمـرو بـن العاص إلى هذه البلاد سنة ٦٤٠ أي بعد مائة سنة فحسب من سقوط آخر قلاع الوثنية. وفضـلاً عن هذا فإن انشقاق المسيحية إلى مذاهب قبل، وبعد، مجمع نيقية فى أوائل القرن الرابع الميلادى. أدى إلى احتدام الصراع بين المناطق المسيحية تبعاً لمذهبياتها فكانت المسيحية عامـل تفرقـه لا عامل جمع، وكان الإسلام – وحده بين كل الأديان - هو الذي جمع ووحد هذه المنطقة وصدق ا تعالى ﴿لو أنفقت ما في الإسلام جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن ا ألف بين قلوبهم ﴾ ديناً ولغـة وتاريخاً. وتلك يد للإسلام على هذه المنطقة خاصة تميزه عن بقية الأديان. بحيث يكون إطـلاق كلمة دين علي الإسلام ظلما وتجاهلا لخصائصه الفائقة التي لم تتح لغيره .

١. أنظر سندباد مصري تأليف الأستاذ حسين فوزي ص ٢٦٦



ولا يقل عن ذلك أهمية أن الإسلام لم يكن فحسب الدين الجامع لكل سكان المنطقة الـذي صدر عنه التاريخ المشترك ونبعت منه اللغة الواحدة، ولكنه أيضاً أقرب الـديانات إلـى جـوهر الديانات القديمة للمنطقة، أو على الأقل أهم هذه الديانات -أعنى الديانة المصرية القديمـة- فـإذا استبعدنا ظاهرة تعدد الآلهة وتجسيمها التي تعود إلى أسباب محلية أو شـكلية أو مرحليـة، فـإن جوهر الديانة المصرية هو الخلود والحساب والعقاب بعد الموت .

ولم تعن ديانة من الديانات القديمة بذلك عناية الديانة المصرية القديمة. ففي النقوش التـي تغطى جدران المعابد، تظهر صورة "الميزان" الذي توزن به الأعمال والمحوش التـي تتـربص بالمذنب.. والنعيم الذي ينتظر البريء، كما حفلت البرديات بالاعتراف السلبي كما اطلـق عليـه. ولولا الإيمان المتأصل بعقيدة الخلود لما قامت الأهرامات والمعابد الضخمة ولما نشـأ الضـمير الذي أوجد الحضارة المصرية. . . وهذا الاهتمام بالبعث والثواب والعقاب هو ما تفرد به الإسـلام بين الأديان السماوية بحيث نجد فيه صورة قريبة من الصورة القديمة بما فيها من ميزان لا يفلت مثقال ذرة، ونعيم للمحسنين وجحيم للغاوين .

فالإسلام هو الوريث الشرعي للديانة المصرية القديمة، وهو الفصل الأخير فـي مسـيرة الإنسان المصري للتعرف على الحقيقة وراء أقنعة إيزيس وصور الآلهة المجسمة حتى انتهي بـه القرار إلى الإسلام فاستقربه النوى وعرف نفسه وضميره فيه ..

وقد يسأل سائل ولماذا خص الشرق العربي – وليس الغرب الأوربي- بأن يكـون الـدين عماده وطابعه ؟ قد يكون الرد عراقة الشرق، وأن الشرق وليس الغرب كانا مهداً للحضارة فكان لابد أن تتهيأ له دعام الحضارة المذهبى ونظامها الاجتماعى وهذا الدعام والنظام هو الـدين. ولا ينفى هذا أن يكون للعامل الجغرافي والبيئة الزراعية آثارها لأن ا يهيئ الأسباب ليحقق النتـائج ويضع "سنة" ثابتة لا تبديل لها تجعل النتائج تقوم على المقدمات ...

وقد تصور البعض إن يهوى الدين من عرشه في العصر الحـديث مـع غلبـة الوضـع الصناعي وانتشار التعليم والثقافة وتقدم وسائل التنظيم والإدارة. وهذا وهم لأن الدين أصبح يبلور وجدان الأمة بالفعل. وهذه التغييرات على أهميتها وثقلها لا تزعزع أربعين قرنـاً مـن التكـوين النفسي للإنسان العربي فضلا عن أن حاجه المجتمع الحديث إليه لا تقل أهمية عن حاجه المجتمع القديم إليه. فقد كان الدين هو فلسفة الوجود والحياة لشعوب العالم القديم وسيظل كذلك في العصر

الحديث بعد أن عجز التقدم المادي عن إشباع جوعه الروحي، ولم تستطع الفلسفة "الفنية" أن تنزل من أبراجها، وما نزل منها ابتذل وأفلس ...

على كل حال فالقضية الأساسية التي نحن بصددها هي أن الإسلام هو أبـرز مقومـات الشخصية العربية، وقد اعترف بذلك كثير من الكتاب المنصفين، وهاهو ذا الـدكتور قسـطنطين زريق، الذي لا يمكن أن يتهم بالتحيز للإسلام – يقول في كتابه "الوعي القومي" .

"وقد بلغ أثر هذا الدين كل ناحية من نواحي ثقافتنا العربية، فلسنا نستطيع أن نفهم تراثنا العربي القديم، سواء في الفلسفة أو العلم أو الفن إلا بعد درس عميق لنصوص الدين الإسلامي واحكامه وتفهم صحيح لروحه ونظامه. وهذا التراث العربي قسم مـن ثقافتنـا الحاضرة، بل هو أساسها الذي تقوم عليه، وباطل ما ينادى به البعض من أن نرمى بهـذا التراث القديم جانباً ونقبل على الثقافة الغربية الجديدة فالتراث العربي جزء منا، شـئنا أم أبينا، وهو فوق ذلك ميزتنا التي ننفرد بها بين الأمم، وقد أوتى مـن الخصـب والقـوة والجمال ما يدفعنا إلى الحرص عليه ومفاخرة الناس كلهم به ولهذا وجب على كل عربي من أي طائفة أو نحلة أن يهتم بثقافته الماضية وببعثها الجديد. وهذا الاهتمام هو **في طليعة الواجبات التي تفرضها عليه قوميته. إن يقدم على درس الإسلام وتفهم حقيقته ويقدس ذكرى النبي العظيم الذي أنزل الإسلام عليه** [١] "

وقد لمس الدكتور قسطنطين زريق لمسة خفيفة بعض صور الشمول في الإسـلام التـي جعلته أهم مقوم من مقومات الشخصية العربية وسنحاول في الفقرات بعض ما أجمله في كلمات ...

فمن الواقع المقرر أن الإسلام شريعة كما هو عقيدة. وان الشـريعة الإسـلامية حكمـت المجتمعات العربية طوال الألف سنة الأخيرة، وكانت الشريعة الإسلامية حماية لهذه المجتمعـات من التغلغل الاقتصادي الرأسمالي الذي يقوم على الربا أو التغلغل الاجتماعي المفسد ببيع الخمور وفتح دور المراهنة والقمار والإفساد، كما كان واقياً لها. من مهانة التقاضي أمام قاضى أجنبـي. ومن هنا كان من الأهداف الأولى للاستعمار القضاء على الشريعة الإسلامية، وإحـلال القـانون الوضعي، الذي سمح بطوفان التدخل ..

---

١. الوعي القومي ص ١٢٨-١٢٩ .

والشريعة الإسلامية هي الشريعة الوحيدة التي يمكن أن يكون لها دور في الوحدة العربية. وقد صور ذلك العلامة الدكتور السنهوري ".. والقانون النهائي الدائم لكل من مصر والعراق، بل ولجميع البلاد العربية إنما هو القانون المدني الذي نشتقه من الشريعة الإسـلامية. بعـد أن يـتم تطويرها. وقد تكون البلاد العربية عند ظهور هذا القانون قد توحـدت. فيـأتي القـانون ليـدعم وحدتها، وقد تكون في طريقها إلى التوحيد فيأتي القانون عاملا من عوامل توحيدها، ويبقى علـى كل حال رمزاً لهذه الوحدة [1] .

والإسلام كذلك قيم اجتماعية طبعت المجتمعات العربية واثرت عليها فاستأصـلت منهـا عادات الإدمان والقمار التي كانت سائدة فيها، وأوجبت النظافـة والاغتسـال، وجعلـت القصـد والاعتدال أسلوبا وغاية وقرب بين الأغنياء والفقراء بدعوته إلى المسـاواة والبـذل والتعـاطف وإفشاء السلام واطعام الطعام وكذلك بنظامي الزكاة والأوقاف اللذين كانا بمثابة "مظلة التأمينـات" وقضى الإسلام على نظم الامتيازات والأرستقراطيات والألقاب المتوارثة والإقطاعية الذي سـاد العالم القديم وأوربا طوال القرون الوسطى. ومع أن نظام الحجاب الذي أسئ فهمه قد أخر المـرأة وجنى عليها وآخر البيت المصري فترة الانحلال، فإن فكرة الإسلام عن الجنس حالت دون فشـو تلك المفاسد والموبقات التي تحفل بها المجتمعات الأخرى .

وكانت الوقائع والمعارك الإسلامية هي الأصل في الأدب الشعبي ابتداء من "فتوح الشـام" حتى بيبرس وما بين ذلك من سيف بن ذي يزن والأميرة ذات الهمة وغير ذلك من الروايات التي كانت أشبه بالروايات البوليسية وذاعت وانتشرت بين العامة والخاصة من اقل فلاح حتـى أخـر المماليك محمد الألفي الذي أوصى عندما أحس بالموت بأن يدفن في مقابر الشهداء بالبهنسا.. ولا تزال بقايا التقليد الإسلامي في مقطع من الأدب الشعبي أو الغناء كأن تبـدأ "الحدوتـه" بالفاتحـة المعروفة "كان يا ماكان يا سادة يا كرام ما يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام" .

ومن المعروف أن ترتيل القرآن كان هو الأصل في التلحيـن الغنائي، فقد وضـع علـم القراءات أصولا ومبادئ عديدة من وقف أو مد أو غن أو تطويل أو تقصير الخ.. وظهر بجانـب الترتيل القرآني وعلى هامشه الإنشاد الديني والمدائح النبوية. وعن هذا الإنشـاد ظهـرت أولـى صور التلحين وتتلمذت أم كلثوم على المقرئ / الملحن الشيخ أبو العلا واعتبر محمد عبد الوهاب

[1]. راجع العالم العربي مقالات وبحوث –الكتاب الثاني- بحث القانون المدني العربي ص ٢٨-٢٩ نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ١٩٥٣ .

نفسه حسيباً على الشيخ الشعراني الذي شب في حماه، وألف أن يؤذن على مئذنته، ولا يبدأ لحناً جديداً.. إلا بعد أن يتبرك به ويقرأ الفاتحة عنده .

وبفضل القرآن والحديث تفتحت آفاق المعرفة أمام عامة الشعب وأفقر فقرائـه وعميانـه. وفتح الأزهر منذ ألف عام أبوابه للفلاحين دون امتحان، ودون كشف طبي، ودون مصـروفات.. بل كان يقدم ما نسميه الآن "منحا" وما كان يطلق عليه جراية واستطاع أبناء الفلاحين أن يصبحوا شيوخاً كباراً لهم مهابة ومنزلة مرموقة استمدوها من كتاب ا وحديث رسـوله وجعلهـم ذلـك الزعماء الحقيقيين للشعب، وبذلك كبحوا جماح السلاطين والمماليك، وأنزلوا الحكام علـى نـص الشرع وأبطلوا الكثير من مظالمهم .

والإسلام للشرق العربي هو التاريخ الحي، وقد يصور ذلك أن يحتفل بالقـاهرة- مركـز أعظم الحضارات القديمة- باعتبارها القاهرة المعزية، وأن يكون شعارها مآذن الأزهـر ولـيس الأهرام، رغم أن موقع القاهرة المعزية نفسه كان مقر العاصمة المصرية القديمة، وكـان يمكـن الاحتفال بمرور خمسة آلاف سنة، ورغم أن التاريخ المصري فرض نفسه على مصـر الحديثـة بآثاره شمالا وجنوباً، فتمثال رمسيس ينتصب في قلب القاهرة، والأهرام تطرز حواشـيها، وأبـو الهول يقوم على حراستها، وأن أسلوبها في تزجيج الحواجب، وتصفيف الشعر، "والجيب" الضيق يكاد يكون موضة الوقت. . . رغم كل هذا، فالحقيقة الواقعة هي أن كل ما كان قبل الإسـلام مـن تاريخ أو أحداث أو قيم أصبح في طيات اللاشعور التاريخي. ويجب أن نعـرف أن مصـر قـد تعرضت لألف عام من التحلل، بدأت بهزيمة أبسماتيك الثالث أمام قمبيز سنة ٥٢٥ قبـل المـيلاد التي يمكن أن يقال إنها وضعت نهاية مصر القديمة بكل أمجادها وتقاليـدها، وأخـذت أطيـاف الماضي تندثر وتختفي مع كل عام يمضي. وكان دخول الإسلام هو اليقظة الأولى لمصـر بعـد سباتها "الألفي" منذ ٥٢٥ ق.م ومن هنا جاز لمؤرخ محايد جداً أن يقول "كما لا يجدي الإدعاء بأن حضارة مصر القديمة باقية فينا إلى اليوم، فهي غير باقية وانتهى الأمـر" [١] أمـا عـن الحقبـة المسيحية التي كانت تمثل قطعة حمراء، في تلك الحقبة السوداء، والتي لم تعمر لأكثر من ثلاثـة قرون قبل أن يفجأها الإسلام، فإن هذا المؤرخ يقول إنها "تعيش في شبه ظلام تاريخي" [٢] .

---

١. سندباد مصري للأستاذ حسين فوزي ص ٣٤٤ .
٢. المرجع السابق ص ١١٧ .

وحقق الإسلام الوحدة بين دول المنطقة ففي الفترة الإسلامية كانت مصـر و"الشـام" أي سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن تمثل دولة واحدة وقد تضم إليها "الحجاز" والسودان، كمـا جمعت بينها وبين العراق أواصر الخلافة العباسية ..

وطوال الفترة الإسلامية كان المشايخ هم الذين يمثلون القيادات الشعبية، وهم الذين يقودون المقاومة الشعبية عند الخطر. وعندما هاجم السلطان سليم مصـر سـنة ١٥١٧ اقتيـد الأمـراء الجراكسه إلى الشيخ أبو السعود الجارحى الذي كان يتمتع بمنزلة روحية كبيرة فوبخهم وجعلهـم يقسمون على المصحف بأن يتوبوا عن المظالم ويلتفوا حول "طومان بآى" ويخلصوا له ..

وعندما تعرضت الدول العربية للاستعمار الأوربي كان الذي تحداه وتصدى لدفعـه هـم الشيوخ، ففي مصر برز السيد عمر مكرم نقيب الأشراف وجمع الشعب تحت "البيـرق النبـوي" عندما انهزم المماليك أمام نابليون. ثم تزعم الثورة على الفرنسيين عندما دخلوا القـاهرة وعلـى محمد على عندما بدأ يتجبر. وعندما أراد نابليون أن يعلق على صدر الشـيخ السـادات شـارة الجمهورية الفرنسية قذف بها هذا إلى ~~الأرض في الوقت الذي كان ماو~~
الجباه أمام نابليون. وفي الجزائر ظهر الأمير عبد القادر، وفي المغرب ظهر الأمير عبد الكـريم الخطابي، وفي ليبيا قاد سيدي أحمد الشريف السنوسى والسيد عمر المختار الجهاد ضد الإيطاليين، وفي السودان ظهر "المهدي، وأراد أن يأسر غردون ليفدى به عرابي. وكان الذي أيقـظ العـالم العربي وافد مسلم من أقصى أسيا: جمال الدين الأفغاني الذي وضع في هذه البلاد بذرة الصحافة، وبذرة البرلمان، وبذرة الحزب الوطني، وتقليد العمل الثورى لمقاومة الاستعمار وبالذات بريطانيا التي شن عليها – حتى أنفاسه الأخيرة – حرباً لا هوادة فيها، ويكاد هو أن يكون الإسهام الوحيـد للشرق في عالم الثوريين العالميين العظام. دع عنك المئات من الأبطال المغاوير المجاهيـل فـي أواسط أفريقيا من مؤسسي وتلامذة الطرق الصوفية الإسلامية كالسنوسية والتيجانية الذين نشـروا العلم والمعرفة في أعماق القارة وكونوا إمبراطوريات وممالك ودولا زاهرة لا يكاد يعرف العربي الحديث عنها شيئاً، ثم قاوموا الاستعمار.. واستشهدوا في هذا السبيل .

والكثير من الناس يعتبرون السلطان عبد الحميد آخر سلاطين آل عثمان ممثلا لنقـائص الحكم التركي، ولكن إسلامه جعله يرفض الخضوع لإغراء باقعة الصـهيونيين "هرتـزل" لمـنح اليهود أي امتياز في فلسطين. رغم أن هر تزل عرض عليه أموال اليهود في الوقت الذي كانـت تركيا على شفا الإفلاس .

وحتى في عالم السياسة الحزبية.. نجد أن أكثر الزعماء تأثراً بالإسـلام كـانوا أكثـرهم تضحية وأشدهم إخلاصاً وأبصرهم بالاتجاه السليم. فقد رأي مصطفى كامل أن العدو الحقيقي هو بريطانيا وأن الطريق الحقيقي هو الكفاح وليس المفاوضة.. وأن الدبلوماسية الدوليـة فـي هـذه الفترة بالذات - يمكن أن تجدي. ودعا إلى تكوين الجامعة المصرية سنة ١٩٠٤ قبـل أن يوجـه "الغمراوى" نداءه المشهور، وأسهم في تكوين سكة حديد الحجاز. ولما مات لم يجد شـوقي فـي رثائه تشريفاً أكبر من وصفه بأنه "خادم الإسلام". وتلاه محمد فريد فكان مثالا سـاطعاً للوطنيـة والإسلامية.. فأين هؤلاء من لطفي السيد مثلا وهو انبه السياسيين الحزبيين، بانزلاقاته كـرئيس لحزب الأمة (حزب الإقطاعيين) وبما دفعه إليه إيمانه الضيق بدعوة مصر للمصريين من الدعوة لأن تكف مصر عن مساعدة طرابلس عندما هاجمتها إيطاليا سنة ١٩١١ هجوماً غـادراً وحشـياً وحوصر المجاهدون وسدت في وجههم الطرق باستثناء مصر التي عمل رجالات الحزب الوطني بإخلاص لتزويد المجاهدين بالمال والعتاد والمؤن .

وقل مثل ذلك بالنسبة لمحمد حسين هيكل الذي تأثر بفكرة "الفرعونية" قبل أن ينقذه الفكر الإسلامي، وإسماعيل صدقي الذي ركز كل جهده في تشجيع الرأسمالية الغربية ورفض شراء عدد كبير من الدبابات عرضها الجيش البريطاني في نهاية الحرب العالمية الثانية (**١٩٤٥**) ولو كانت لدى الجيش المصري لما وقف سنة ١٩٤٨ عند أسدود. دع عنك الصغار الذين هيمنوا على البلاد كالنقراشى وعبد الهادي اللذين وأدا العمل الفـدائي ضـد إسـرائيل، وكانـا يأخـذان الفـدائيين والمتطوعين من ساحة القتال إلى معسكر الاعتقال، ووجها لطمة لعزة الشعب وكرامته عندما حلا أكبر هيئة إسلامية كانت - على أخطائها الصغيرة - أمل الشرق والعرب وأخذتهما العزة بـالأثم فمضيا في طريق العسف وفتحا صفحة التعذيب المقيتة.. ثم سمحا بقتل زعـيم الهيئـة المرجـى وتسترا على قتله.. وقدما بهذا كله لإسرائيل والاستعمار خدمات لم يكن يحلم بها.

وعندما استطاعت فرنسا بفضل مائة عام من الاحـتلال أن تحطـم المقومـات القوميـة للجزائر، وأن توجد في ظل هذا الاحتلال الطويل جيلا يعد - بتعبير كاتب جزائري - "أسير اللغة الفرنسية" التي لا يتكلم غيرها.. وعرضت على الجزائر أن تكون قطعة من فرنسـا وأن يتمتـع الجزائريون بحقوق وواجبات المواطن الفرنسي، ولكن جمعية العلماء التي ظلت وحدها القلعة التي لا تستطيع فرنسا أو اللغة الفرنسية دخولها- أفتت بأن ذلك يعنى التخلي عـن أحكـام الشـريعة الإسلامية في الزواج، والطلاق والميراث الخ.. وأن هذا يعنى الارتداد عن الدين الإسلامي نفسـه

وبالتالي يحرم المتجنس من الصلاة عليه أو الدفن في مدافن المسلمين، وآثر الجزائريون إسلامهم- وكاد هذا أن يكون السبب الوحيد الذي حال دون أن تذوب الجزائر في المجتمع الفرنسي فلا عجب أن ترفع الصيحات عندما استقلت الجزائر ..

يا محمد مبروك عليك

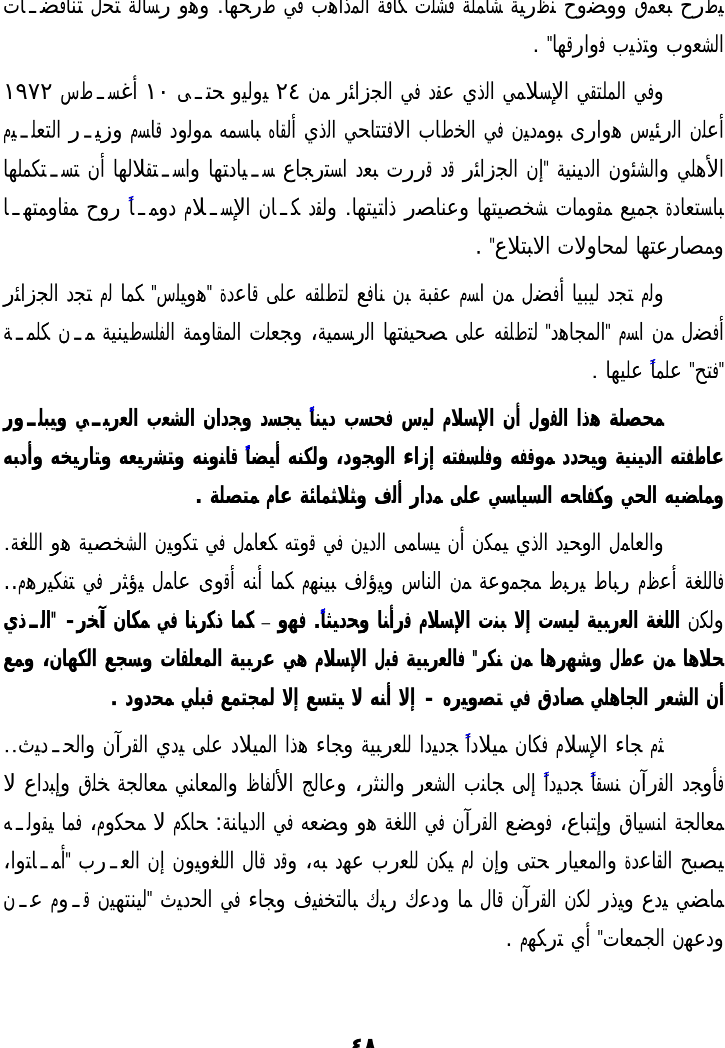
الجزائر رجعت إليك ..

وقد أظهرت مأساة فلسطين كيف أن الوعي الإسلامي، قبل أي وعي آخر، كان هو الذي تنبه إلى خطورة المشكلة. ففي الوقت الذي كان دهاقنة السياسة الحزبية المصريون يضيقون بكل محاولة لإشراك مصر في النزاع الفلسطيني/ الإسرائيلي، ويكاد بعضهم يجاهر بتأييد الإسرائيليين، وكان موقف الاتحاد السوفيتي والأحزاب الضالعة معه لا يقل تأييداً للصهيونية عن أمريكا. كانت الهيئات الإسلامية على ضحالة وعيها السياسي بصفة عامة أول من تنبهت إلى خطورة الوضع، لأنها رأت بإيمانها ما لم يره السياسيون بذكائهم. فأخذت تعمل لمقاومة التغلغل الإسرائيلي، وتجمع التبرعات لمساعدة عرب فلسطين في ثورتهم الكبرى سنة ١٩٣٦.

وعندما بدأت الحرب سنة ١٩٤٨ قادت جماعة الإخوان المسلمين الحركة التطوعية. وأصبح أعضاؤها من الشبان المثقف الذي ترك الجامعة، أو العمال الذين ضحوا بأعمالهم "ومدة خدمتهم" أو الفلاحين الذين باع كل واحد منهم جاموسته ليشترى بندقية، رعب اليهود والشبح الرهيب.. وقدمت الجماعة أكرم وأنبل الشهداء.. ولو أعينت أقل إعانة في هذا العمل البطولى لخلصتنا من إسرائيل ! ولكن هؤلاء الأبطال كانوا- كما ذكرنا- يؤخذون من ساحة القتال إلى معسكر الاعتقال لأن السياسة الحزبية الغبية الضيقة المحرومة من الوعي الإسلامي كانت تتحكم في مصر ...

وعندما حدث العدوان الثلاثي، وفوجئت مصر في أواخر أكتوبر سنة ١٩٥٦ بثلاث دول تهاجمها لم يجد الشاعر ما يثير النخوة والكرامة وروح الاستقتال إلا (الله أكبر) فأصبح (الله أكبر) نشيد المعركة. ولم يجد عبد الناصر إلا الأزهر مكاناً يستطيع أن يسمع الشعب منه، فهرع إليه كما فعل عمر مكرم والشيوخ قبل مائتي عام.. ليعلن من على منبره كلمة الحرب .

وآخر ما يصور المنزلة الرفيعة للإسلام في قلوب الناس رغم المحاولات لصدهم عنه ما قرره المؤتمر الوطني العام للاتحاد الاشتراكي العربي بليبيا "يؤكد المؤتمر أن الإسلام هو المنبع الوحيد للقيم والحضارات الإنسانية وهو رسالة سماوية ذات زاد فكري لا ينضب إلى البشرية كافة



يطرح بعمق ووضوح نظرية شاملة فشلت كافة المذاهب في طرحها. وهو رسالة تحل تناقضات الشعوب وتذيب فوارقها" .

وفي الملتقي الإسلامي الذي عقد في الجزائر من ٢٤ يوليو حتى ١٠ أغسطس ١٩٧٢ أعلن الرئيس هوارى بومدين في الخطاب الافتتاحي الذي ألقاه باسمه مولود قاسم وزير التعليم الأهلي والشئون الدينية "إن الجزائر قد قررت بعد استرجاع سيادتها واستقلالها أن تستكملها باستعادة جميع مقومات شخصيتها وعناصر ذاتيتها. ولقد كان الإسلام دوماً روح مقاومتها ومصارعتها لمحاولات الابتلاع" .

ولم تجد ليبيا أفضل من اسم عقبة بن نافع لتطلقه على قاعدة "هويلس" كما لم تجد الجزائر أفضل من اسم "المجاهد" لتطلقه على صحيفتها الرسمية، وجعلت المقاومة الفلسطينية من كلمة "فتح" علماً عليها .

محصلة هذا القول أن الإسلام ليس فحسب ديناً يجسد وجدان الشعب العربي ويبلور عاطفته الدينية ويحدد موقفه وفلسفته إزاء الوجود، ولكنه أيضاً قانونه وتشريعه وتاريخه وأدبه وماضيه الحي وكفاحه السياسي على مدار ألف وثلاثمائة عام متصلة .

والعامل الوحيد الذي يمكن أن يسامى الدين في قوته كعامل في تكوين الشخصية هو اللغة. فاللغة أعظم رباط يربط مجموعة من الناس ويؤلف بينهم كما أنه أقوى عامل يؤثر في تفكيرهم.. ولكن **اللغة العربية ليست إلا بنت الإسلام قرآنا وحديثاً. فهو - كما ذكرنا في مكان آخر- "الذي حلاها من عطل وشهرها من نكر" فالعربية قبل الإسلام هي عربية المعلقات وسجع الكهان، ومع أن الشعر الجاهلي صادق في تصويره - إلا أنه لا يتسع إلا لمجتمع قبلي محدود .**

ثم جاء الإسلام فكان ميلاداً جديدا للعربية وجاء هذا الميلاد على يدي القرآن والحديث.. فأوجد القرآن نسقاً جديداً إلى جانب الشعر والنثر، وعالج الألفاظ والمعاني معالجة خلق وإبداع لا معالجة انسياق وإتباع، فوضع القرآن في اللغة هو وضعه في الديانة: حاكم لا محكوم، فما يقوله يصبح القاعدة والمعيار حتى وإن لم يكن للعرب عهد به، وقد قال اللغويون إن العرب "أماتوا، ماضي يدع ويذر لكن القرآن قال ما ودعك ربك بالتخفيف وجاء في الحديث "لينتهين قوم عن ودعهن الجمعات" أي تركهم .

ولو تعقبنا كتاباتنا العادية لوجدنا بصمات القرآن واضحة لا في الأساليب فحسب. ولكـن أيضاً في عدد كبير من التعبيرات التي سكها القرآن.. وأصبحت عملـة متداولـة فـي الكتابـات اليومية. مثل ...

الصراط المستقيم. قاب قوسين. ريب المنون. أوجس خيفة. أقرب من حبل الوريد. سـنة ا . هباء منثوراً. العروة الوثقى. ضاق بهم ذرعا. بلغ أشده. أضغاث أحـلام. قاعـاً صفصـفاً. أساطير الأولين. بشق الأنفس. كبرت كلمة. شغفها حباً. خاوية على عروشها. مثقال ذرة. سـواء السبيل. لا يغنى ولا يسمن من جوع. بضاعة مزجاة. ذات الصدور. قدم صدق، عرضـاً قريبـاً. كلمح البصر، شفا جرف هار، البأساء والضراء. أسرها في نفسه. أجل مسمي، المثـل الأعلـى. خائنة الأعين. التي هي أحسن. تقطعت بهم الأسباب. أسوة حسنة. تضع الحرب أوزارها. سـكرة المنون. طال عليهم الأمد. وبال أمرها. جزاء ولا شكوراً. لؤلؤاً منثوراً، بكرة وأصـيلا. سـعيكم مشكوراً. قرار مكين. طرف خفي. توارت بالحجاب. شهاب ثاقب. قرة أعين. أرذل العمر. نسـياً منسياً. يتربص بكم الدوائر. سقط في أيديـهم. الحرث والنسل. التقي الجمعان. نضـرة النعـيم. يبدئ ويعيد الخ ...

ومن التعبيرات التي سارت مسرى الأمثال والحكم "لا تزر وازرة وزر أخرى. الفتنة أشد من القتل. ولكم في القصاص حياة. وأتوا البيوت من أبوابها. هل جزاء الإحسان إلا الإحسان. وما على المحسنين من سبيل. ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة. لا يكلف ا نفسـاً إلا وسـعها. إن ا لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. سلقوكم بألسنة حداد. فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق. يوماً يجعل الولدان شيبا. الآن حصحص الحق. ضاقت عليهم الأرض بما رحبـت. فأمـا الزبـد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فيالأرض. كل يعمل على شاكلته. حاجة في نفس يعقـوب الخ ...

ثم جاء الحديث النبوي فأضاف ثروة جديدة إلى ما أضافه القرآن وسمع العرب من محمد ما لم يسمعوه من غيره من قبل، فلم يسمع أبو هريرة بكلمة السكين قبل أن يسمعها من النبي وإنما كانوا يسمونها "المدية" ولقد يبدو أن تعبير "من وراء البحار" تعبير محدث لا يجـده الإنسـان إلا كترجمة لتعبير بريطاني. ولكن القارئ يجده في الحديث قبل أن يكون لبريطانيا شئ وراء البحار .

وهكذا كان القرآن فتحاً بل خلقاً جديداً في اللغة العربية. أسـلوبا. ومعالجـة. وإثـراء. . . وبلغت كتب التفسير والحديث وقواميسهما وشرحهما والأحكام المستقاة منهما الأ لـوف وعشـرات الألوف وقد يبلغ الكتاب الواحد ثلاثين جزءاً ضخماً .

وفي سبيل حماية القرآن من اللحن وضع النحو، ولتيسير قراءته وضعت النقط وعلامات الشكل، ولفهم أساوبه درست اللغة دراسة فنية تفصيلية. ومن العلماء من جعل الغاية الوحيدة مـن دراسة علوم البيان هي معرفة سر الأعجاز. ويبدو هذا واضحاً من كلام عبد القاهر فـي دلائـل الأعجاز. والسكاكى في المفتاح وقال ابن خلدون "واعلم أن ثمرة هذا الفن- البيان - إنما هو فهـم إعجاز القرآن" .

ولما نزل القرآن بالعربية أصبحت لغة عبادة واكتسبت صفة تكاد تكون مقدسة. وانتشرت في كل العالم الإسلامي حتى أقصى الصين والهند وأسبانيا ومن لم يعرف العربية معرفة تحـادث وتخاطب أو قراءة وكتابة عرفها بالقدر اللازم لعبادته. وعكف المئات. بل الألوف مـن جهابـذة علماء خراسان وما وراء النهر والهند وتلك الجهات التي نسـميها إيـران والأفغـان والاتحـاد السوفيتي والهند على دراسة اللغة العربية وإحكامها حتى وإن لم تسعفهم ألسنتهم أو حالت العجمة عن أن يحكموا النطق بها. فوجد من علماء اللغة من لا يستطيع أن يقول "حمار" وإنمـا ينطقهـا (همار). وكتب الرازي. وابن سينا. والبيرونى. والفارابى وغيرهم الأمهات في العلوم والمعارف بالعربية، ووجد في الشعر والحديث من يحمل اسم ابن الرومي وابن جريج بل إن معظـم أئمـة الحديث والتفسير يحملون أسماء تنم عن أصولهم الأجنبيـة مثـل (البخـاري) و (الترمـذى) و (الطبرى) و (النسائي) و (النيسابورى) و (السجستانى) و (القزوينى) الخ. . . وبهذه الطريقة كسبت اللغة العربية خدمة عباقرة الأجناس المختلفة من دول ما كانت تأبه للغة العربية أو حتى تلم بها لو أنها ظلت لغة المعلقات أو امرئ القيس

بل إن آخر الدعاة إلى القومية العربية على أساس اللغة وهو الأستاذ ساطع الحصرى لم يكن يحسن النطق باللغة العربية، وكان إسلامه - حتى وإن لم يعترف هو - في أصـل الانتمـاء إلى هذه البلاد ...

وهناك خدمة أخرى قدمها القرآن للغة العربية، والقومية العربية. فمـع مـرور القـرون وتوالى الأجيال واختلاف العوامل البيئية والمحلية في مختلف دول العالم العربي ظهرت لهجـات وعاميات تختلف اختلافاً بيناً بحيث لا تكاد عامية العراق تفهم في السودان، ولا عامية السـودان

تفهم في مصر، ولا عامية مصر تفهم في سوريا، وهلم جراً. وكان من الممكن أن يقضـى ذلـك على وحدة اللغة بحيث لا تفهم الشعوب العربية بعضها بعضاً لولا "بركة" القرآن ويـده البيضـاء على اللغة العربية. **ذلك أنه أوجد العربية القياسية الموحدة التي تفرض نفسها فرضاً على كافـة اللهجات العربية، بحيث أصبح كل عربي يلم بقبس منها بحكم حفظه للفاتحة** و ﴿قل هو ا أحد﴾ وبقية قصار السور.. ويأخذ فكرة كافية عنها بحكم سماعه للقرآن الذي يتلى ليل نهار في البيـوت والمساجد.. وبهذا أصبح لكل عربي إلى جانب اللهجة العامية الخاصة بإقليمه، عربيـة فصـحى يشترك معه فيها كل أبناء الأقاليم والدول العربية، بل والإسلامية لا لشيء إلا لأنها لغة القرآن ...

وقد هوجم وجود لغة فصحى إلى جانب اللهجة العامية، وبـدأت هـذا الهجـوم القـوى الاستعمارية التي أرادت لأن تضرب عصفورين بحجر واحد. فتفتت الوحدة العربية بأن تقضـى على اللغة الفصحى التي تجمعها، وتوهن المقوم الإسلامي عندما لا يكاد الشعب يفهم لغة قرآنـه. فحاولت ذلك فرنسا في الجزائر والمغرب، وحاولته بريطانيا في مصر.. وأسهم في هذه الحملـة كتاب سذج وآخرون مغرضون. وفشل كل هؤلاء رغم ما كان لديهم من قوة وسلطان لأن إعزاز الشعوب العربية لإسلامها وقرآنها.. كان أقوى منهم، وكوفئت الشعوب على ذلـك بـأن كسـبت الإسلام.. والعربية .

والواقع أن وجود لغة فصحى، أرستقراطية، فنية إلى جانب اللغة العامية كـان، وسـيظل نعمة كبرى، وتقسيم مفروض بحكم التخصص. فلا يمكن للغة أن تكون في آن واحد لغة مطـبخ وحديث يومي، ولغة أناقة وفن موسيقى ومشاعر عميقة. وكان من بركة الإسلام أن جعـل اللغـة الأرستقراطية دانية القطوف لكل فرد بلا استثناء. واللغة العربية في هذا أفضل من اللاتينية التـي تعد أصل اللغات الأوربية الحديثة ولا يلم بها حديثاً أو كتابة إلا الصفوة القليلة المثقفة لأنها ليست لغة دين، ولأن العلاقة المباشرة بها أنبتت منذ مئات السنين ...

خلاصة هذا كله أنه إذا كانت اللغة هي لدى أنصار القومية العربية المحـدثين الأسـاس المكين، فإن كل فضل لها يجب أن يقيد لحساب الإسلام بالذات، فاللغة العربية ربيبـة الإسـلام وحسيبته.. ولولاه لما كانت شيئاً ولمزقتها اللهجات إرباً إرباً ...

***

لعلنا بما قدمناه آنفا قد أثبتنا أن الإسلام هو أبرز مقومات الشخصية العربيـة، بـل هـو طابعها وجابلها ودعامها. وزيادة في الإيضاح فسنثبت هذا الأمر نفسه بطريقة أخرى هي نفي كل البدائل الأخرى المحتملة ...

فإذا لم يكن الإسلام هو أبرز مقومات الشخصية العربية.. فما هو هذا المقوم ؟؟

هل هو اللغة.. لقد أوضحنا بما لا يدع شكا أن اللغة العربية الحديثة ولـدت علـى يـدي الإسلام وسارت ونمت في حماية القرآن، ولولا هذه الولادة الحديثة وهذه الحماية المستمرة لقضت عليها اللهجات المحلية، ولا نحط مستوى التفكير بانحطاط أداته فضلا عن تقطع الأواصر بين كل الدول العربية .

واللغة بعد أقل من الدين أثراً في طبع الشخصية ..

وهناك مثالان بارزان على هذا.. ففي الجزائر قضت فرنسا على اللغة العربية، ولكنها لم تستطع أن تقضى على الإسلام، فأدى بقاء الإسلام إلى استعادة اللغة .

وفي لبنان لم تستطع الأقلية المارونية المسيحية (لأنها في الحقيقة أقلية) أن تهضم وضعها وسط العالم العربي المسلم فحنت إلى أقرب الدول المسيحية إليها- فرنسا- وآثرت اللغة الفرنسية، رغم أنها أشبه بجزيرة صغيرة وسط بحر عربي، ولكن الدين.. أدى إلى اللغة ..

فاللغة أقل أثراً من الدين ..
واللغة العربية بالذات وليدة الإسلام ...
إذن هل يكون الجنس ...

هذا لا يمكن، لأن الجنس وحده لا يمثل الصدارة. فالشخصية أعمق، وأعقد بكثيـر مـن مجرد الجنس، ومن أجل هذا قيل إن الفرق بين أفراد الجنس الواحد أكبر مما هو بين جنس وآخر، فالجنس أضأل وأقل من أن يكون المقوم الذي تدور عليه الشخصية المتميزة للأمة. ولكل جـنس بعد اعتزازاته وإسهامه في تاريخ العالم. وليس في الجنس العربي ما يميزه بالذات ويجعله أفضل من بقية الشعوب. فإذا ذكرنا في حسناته المطبوعة الكرم والأنفة والحمية، فيمكن أن نذكر أيضـاً في عيوبه الحدة والعاطفة الفردية وما حفلت به الجاهلية من سوءات كالوأد والشرك ونظم الزواج المعيبة. والميزة الوحيدة للعرب على بقية شعوب العالم هي أنهم حملة رسالة محمد ودعاة الإسلام فالفخر والمنة بعد للإسلام أولا وآخراً .

فدعوى الجنس- باعتباره المقوم الأساسي للأمة- مرفوضة عملياً وأدبياً. ومن قبل حسـم سيد العرب ﷺ هذه القضية عندما جعل المناط في العربية اللغة، وليس الجـنس فقـال "**العربيـة اللسان**" وجعل مناط الأفضلية التقوى والعمل "لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى" .

ولا يمنع هذا بالطبع من أن سكان هذه المنطقة العربية هم من جنس واحد أكثر مما يظن البعض، فالمصريون عرب لأن موجات عديدة من الهجرة العربية وفدت على البلاد قبـل الفـتح الإسلامي بكثير. وبحق قال شوقي :

السئم بني القوم الذين تمردوا
على الضربات السبع في الأبد الخالي
رددتم إلى فرعون جداً وربما
رجعتـم لعـم في القبـ ـائل أو خال

والعرب أيضاً- وأعنى عرب الجزيرة- مصريون.. لأن أمهم هي هاجر المصرية...

إذن هل يكون التاريخ ...

لقد أوضحنا أن التاريخ القديم- تاريخ ما قبل الإسلام- أصبح ذكـرى تاريخيـة فحسـب فصلت بينها وبين التاريخ الحي للبلاد ألف سنة من التأخر والانحلال اندثرت خلالها كـل مـآثر التاريخ القديم، وأصبحت البلاد فيها نهباً للرومان والفرس حتى جاء الإسلام فكان البداية الحقيقيـة للتاريخ الحي للبلاد، أما ما قبله فقد أوى إلى ركن سحيق من أركان "لا شعور" الأمة. . . وهذا هو السبب في أننا لا نسمع دعوة فرعونية أو دعوة آشورية أو دعوة فينيقية، حتى ولـو مـن بـاب النزوات والتقاليع ..

وقد وضعنا الأمر في نصابه عندما قلنا أن التاريخ القديم كون اللا شعور الموزع في حين أن الإسلام كون الشعور المجمع والتاريخ الحي الواحد لسكان المنطقة جميعاً .

أكثر من هـ ـذا ...

هل نجحت المحاولات المتعددة لمفكرى العالم العربي في العصر الحديث على اخـتلاف ثقافاتهم وانتماءاتهم في أن توجد في المجتمع العربي نظرية غير إسلامية تملأ وجـود المجتمـع العربي أو تقنع المواطن العربي أو تتجاوب مع تكوينه النفسي؟ لم تخدم نظرية في العصر الحديث كما خدمت الشيوعية، ولم ترزق تأييد دول وفلاسفة كما رزقت، ومع هذا فقد فشـلت الشـيوعية عندما حاولت أن تتسلل إلى هذه البلاد رغم تسلحها بالمال والمغريات وادعـاء العلميـة فـي أن تكسب جمهوراً عريضاً من صميم الشعب حتى في دوائر العمال والنقابات، واقتصر الإيمان بهـا على حفنة من أنصاف المثقفين والمتمصرين واليهود وأولاد الذوات !

ومع أن حزب البعث استطاع أن يلي الحكم فترات عديدة، ولم تعوزه كل الإمكانيات التي تتاح لحزب حاكم، فإن كل محاولاته لإيجاد أيدلوجية عربية كانت دليلا لا يدحض على الإفلاس.. قدر ما كانت دليلا على أن نظرية تتجاهل الإسلام تنفي نفسها من قلوب النـاس وتقتصـر علـى جمهور المنتفعين. وقد فشل حزب البعث في التصدي للشيوعيين وتحويلهم إلى بعثيين، بينما تمكن هؤلاء بوسائلهم المعروفة من التغلغل في حزب البعث السورى والعراقي، وليس من ريب في أنهم يرسمون الخطط لإعادة تلك الحقبة الكريهة التي ما كادوا يتنسمون فيها نسيم السلطة، حتى بدءوا عهد "السحل" والقتل والإبادة ..

كما لم تنجح كل المحاولات التي بذلتها على مدار عشرين عاماً أو أكثر بعـض الـدول العربية النامية لإيجاد "أيدلوجية" عربية متكاملة رغم الاجتماعات والمؤتمرات وتسخير المـوارد والإمكانيات والعقول والطبول !!

ومن قبل سقطت كل الدعوات الأخرى التي ظهرت في فترات مختلفـة مثـل "الحـزب القومي" الذي ألفه أنطون سعادة أو دعوة "الفرعونية" أو الأفريقية الخ. . . بالسرعة التي ظهرت بها .

***

وهناك ظاهرة ملموسة ومؤسفة تدخل في هذا الباب، باب الإثبات بالنفي .

فقد تعرض المقوم الإسلامي في الفترات الأخيرة لحملة شعواء قامت بها قـوى عديـدة، وتسلحت فيها بكافة الأسلحة بما فيها وسائل الإعلام، والسينما، والصحافة الخ ..

وكانت نتيجة ذلك أن وهن فعلا المقوم الإسلامي، ولكن ذلك انسحب على "الشخصية" التي ماعت وبهتت وطغت عليها السلبية وعدم الاكتراث والانتهازية والسطحية .

حدث فراغ وتخلخل أيدلوجي انعكس على تصرفات الشباب وأثمر السلوك السـقيم الـذي نشاهده سواءا كان جنوناً بكرة قدم أو انسياقاً وراء الموضـات الشـاذة والرقصـات المجنونـة والموسيقي العاوية ..

ولم تنجح كل الجهود التي بذلت لملأ هذا الفراغ رغم ما يبذل من محـاولات مستيئسـة، على العكس لقد استغلت هذه الجهود لمصلحة الاتجاه التحللى كما تدل على ذلـك مأسـاة الفنـون المصرية فقد أضاعت السينما على الدولة قرابة ثمانية ملايين من الجنيهات في سبيل إخراج عدد

من أفلام "الغوازي" أو "الجنس" أو الجريمة تحفل بمناظر السكر والعربدة والجريمـة والـرقص، وملأ التليفزيون ساعات إرساله بإذاعة أفلام هاوية ومسلسلات لا تفضل هذه الأفلام، وبعثت مرة أخرى أغاني "الفلكلور" المزعوم، وأصبحت مفخرة كل محافظة أن تكون فرقة للفنـون الشـعبية! واستغلت قصور الثقافة في "الفلكلور" والتمثيل و "المزيكة" كما ينطقونها! فعامية وجهالـة كبـار الفنانين بلغتهم جعلتهم ينحدرون بفنهم الجميل من موسيقي إلى "مزيكة"! وأثبتت كل هذه المأساة أن الإمكانيات المادية مهما توفرت، ومهما كانت جسيمة، فإنها لا تعوض الإفلاس الأيدلوجي ...

ويجب في هذه النقطة - نقطة الشخصية - أن نفرق بين ناحيتين: الأولى تعمق الشخصية ورسوخها والثانية سلامة هذه الشخصية ...

فالرجل الذي يفهم الإسلام فهماً شكلياً، فلا يعنى إلا بأن يطيل لحيتـه، ويعفـي شـاربه، ويرسل عذبته، ويهتم بالظواهر دون الجواهر يجنى ولا شك على سلامة الاتجاه، ولكن هذا النقص لا ينفي أنه اكتسب شخصية معينة ثابتة واضحة لا لبس فيها ولا التواء، بصرف النظر عمـا إذا كانت هذه الشخصية حسنة أو سيئة

وقل مثل ذلك في "الصعيدي" الذي يتخلق بأخلاق معينة، أو يتمسك بعادات موروثة، قـد تكون سقيمة أو عقيمة، ولكن إيمانه بها يهديه إلى المسلك المحدد وينقذه من الحيرة والبلبلة، فضلا عن الضياع ويجعل له معياراً وشخصية .

في حين أن شاباً لا يتوفر له المقوم الإسلامي لا يلبث أن يقع فريسة للصراع المذهبي ما بين الشرق والغرب، بين الجديد والقديم دون هداية إلا ما يسمع من دعايات رخيصة لا تفيده فـي شئ بل تزيد في بلبلته وتمييع شخصيته ومعاييره في الحكم على الأشياء.

وقل مثل ذلك في المرأة المصرية المدنية التي تعد نتاجاً خالصاً للبورجوازية المصـرية المتمثلة في "حـواء" و "صباح الخير" والإذاعة والتليفزيون، والتي فقـدت جـذورها التقليديـة وأصبحت حائرة معذبة مبلبلة الخاطر ممزقة الأحاسيس، فقد خسرت تلك الأصـالة التـي كانـت لجدتها الفلاحة الراسخة المطمئنة المستلهمة للإسلام، دون أن تكسـب جـرأة وانطـلاق المـرأة الأوربية التي بنت شخصيتها على مكونات خاصة بها. إنها "أي المرأة المصرية" تلبس "المينـى" والثوب القصير انسياقا وراء المودة ولأنها لا تملك مناعة ضدها، ولكنها ما أن تجلـس وينحسـر فستانها فوق الركبة حتى يعروها الخجل ويثور فيها تقليد الحشمة المستكن فتأخذ في جذبه وشـده، أو تضع حقيبة يدها على الركبتين، أو ما هو أعجب، تسبغ "ايشارب" كبير كأنـه فوطـة علـى

ركبتيها! وليس ما هو أكثر رمزية على وضع المرأة البورجوازية المتأرجح من مثل هذا المشـهد ..

ولست أنسى ما قرأته من مده عن تلك "الأخصائية" الاجتماعية التي ذهبت إلـى الريـف متبرجة متبهرجة، في ثوبها القصير إلى إحـدى القرى لبحث حاله، وكان ذلك في رمضان فخرج عليها القرويون المحنقون بالفؤوس !

ولو رسخ المقوم الإسلامي في نفوس الشباب، لما وجدت هذه الصور من الضياع والتفاهة والحيرة. ولعمق الشخصية، وأكسبها فهماً للحياة بحيث تقبل أو ترفض.. تحب أو تكره على هدى وبصيرة وبمعيار واحد وثابت، ولوجد الجسر المطلوب، واللغة المشتركة بين كل طبقات المجتمع .

ولا يتصور أحد أن الأخذ بالإسلام يعنى بالضرورة هذه المناهج التي يضعها الكثير مـن الدعاة إلى الإسلام، فقد أصيب الإسلام على يدي أصدقائه، بمثل ما أصيب على يـدي أعدائـه، وجنت عليه الإفهام السقيمة بقدر ما جنت عليه القلوب الشريرة.. وإيضاح هذا هـو مـا سـنثيره بطريق غير مباشر في الباب الثاني، وما سنعالجه بتفصيل في القسم التطبيقي من هذا البحث الذي نرجو أن يصدر قريباً .

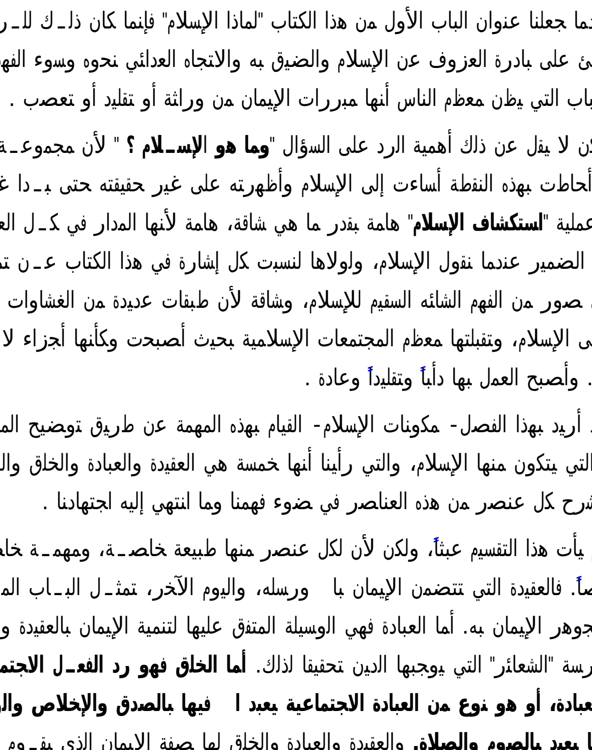
وفي حالات أخرى لا يتعرض المقوم الإسلامي للهجوم ولا تشن عليه الحمـلات، ولكنـه يتَجاهل أو يدغم في المقوم الديني بحيث تحل كلمة الدين محل كلمة الإسلام في الصحف أو أجهزة الإعلام حتى عندما يكون الحديث هو عن الإسلام .

إن هناك فرقاً بين أن نقول الدين، وأن نقول الإسـلام هـو الفـرق مـا بـين التعمـيم والتخصيص. فاليهودية دين، والمسيحية دين، والبوذية دين. وعندما نقول دين، فيمكن أن ينسحب ذلك على كل دين من هذه الأديان في حين أننا لا نريد إلا الإسلام بالذات، وهذا نوع من التمييـع والإيهام يفسد المعنى ويحول دون دقته. ولا يحق لأي اعتبار أن يجنى على الحقيقة أو ينتقص من المعاني أو يحولها عن وجهها وغايتها .

- - - - - -

الباب الثاني

مكونات الإسلام



عندما جعلنا عنوان الباب الأول من هذا الكتاب "لماذا الإسلام" فإنما كان ذلك للرد أولا وقبل كل شئ على بادرة العزوف عن الإسلام والضيق به والاتجاه العدائي نحوه وسوء الفهم الذي أحاط بالأسباب التي يظن معظم الناس أنها مبررات الإيمان من وراثة أو تقليد أو تعصب .

ولكن لا يقل عن ذلك أهمية الرد على السؤال "**وما هو الإسلام ؟** " لأن مجموعة من الإلتباسات أحاطت بهذه النقطة أساءت إلى الإسلام وأظهرته على غير حقيقته حتى بدا غريباً وأصبحت عملية "**استكشاف الإسلام**" هامة بقدر ما هي شاقة، هامة لأنها المدار في كل العمل، وإليها يعود الضمير عندما نقول الإسلام، ولولاها لنسبت كل إشارة في هذا الكتاب عن تمجيد الإسلام إلى صور من الفهم الشائه السقيم للإسلام، وشاقة لأن طبقات عديدة من الغشاوات الكثيفة تراكمت على الإسلام، وتقبلتها معظم المجتمعات الإسلامية بحيث أصبحت وكأنها أجزاء لا تتجزأ من الإسلام. وأصبح العمل بها دأباً وتقليداً وعادة .

وقد أريد بهذا الفصل- مكونات الإسلام- القيام بهذه المهمة عن طريق توضيح المكونات والعناصر التي يتكون منها الإسلام، والتي رأينا أنها خمسة هي العقيدة والعبادة والخلق والشريعة والتراث وشرح كل عنصر من هذه العناصر في ضوء فهمنا وما انتهي إليه اجتهادنا .

ولم يأت هذا التقسيم عبثاً، ولكن لأن لكل عنصر منها طبيعة خاصة، ومهمة خاصة، وحكماً خاصاً. فالعقيدة التي تتضمن الإيمان با ورسله، واليوم الآخر، تمثل الباب المؤدى للإسلام، وجوهر الإيمان به. أما العبادة فهي الوسيلة المتفق عليها لتنمية الإيمان بالعقيدة والحفاظ عليها وممارسة "الشعائر" التي يوجبها الدين تحقيقا لذلك. **أما الخلق فهو رد الفعل الاجتماعي للإيمان والعبادة، أو هو نوع من العبادة الاجتماعية يعبد ا فيها بالصدق والإخلاص والوفاء والعدل، كما يعبد بالصوم والصلاة.** والعقيدة والعبادة والخلق لها صفة الإيمان الذي يقوم على

الضمير، ولا يصح إلا بالنية، ومن ثم فإنها تكون في حماية الستار الذي اسـتأثر بعلـم القلـوب وحقيقة النوايا ويفترض أن لا تعتمد على تشريع أو تقوم على سلطة. وإن كانت بعض العبـادات تكتسب إلى جانب صفة الإيمان الشخصي صفة اجتماعية كصلاة الجماعة أو الحج أو الزكاة التي تدخل أيضاً في باب الشريعة. والشريعة هي الجانب التشريعي والتنظيمـي للإسـلام "الحـدود - القصاص - الربا - الزكاة - الزواج - الميراث - الأحكام السياسية الخ" التي تتفـق مـع نظـرة الإسلام إلي المجتمع وفهمه لما يجب أن تكون عليه أوضاعه. وهي جزء لا يتجزأ مـن الإسـلام يفترض أن تأخذ حكوماته ومجتمعاته بها، وهي في هذا تختلف عن العقيدة والعبادة والخلق لأنهـا "أي الشريعة" تمس أساساً الآخرين والمصالح الدنيوية، ومن ثم فهي تخضع لسلطة المجتمع خاصة عندما تأخذ طابع العلانية. وإن كان من الضروري أن نورد هنا تحفظاً هاما هو ضـرورة تفهـم المجتمع الحديث لها فهماً يعود إلى جوهر الإسلام وحده، وليس إلى التفريعات أو شروح الفقهـاء المتأخرين، وهذا ما يؤدى بنا إلى المكون الخامس من مكونات الإسلام إلا وهو التـراث. ونحـن نعنى بالتراث كل ما جاء عن هذا كله خارجاً عن النص الصريح الواضح للقرآن أو الأثر المحدد الثابت للسنة. فإن الدين قد تم بوفاة النبي ﷺ ويجب أن تكون هناك تفرقة جذرية تقوم على أساس تاريخي. فعهد النبوة، قرآن وسنة، نور على نور، وحي وإلهام ومنة من ا على البشرية. ونحن نقتبس من هذا النور ونلتزم بالثابت منه. أما عهد الخلفاء الراشدين، فهو امتـداد لرحمـة النبـوة وهديها، وقبس من نورها، ومثل نادر للأمانة في الاجتهاد، ونحن نقتدي به ونضعه نصب أعيننا، ولكن دون الإلزام الديني ودون إكسابه قداسة التنزيل وعصمة الحلال والحرام الشـرعيين، فقـد نشكر لعمر بن الخطاب اجتهادا ونأخذ به، وقد لا نقر الآن اجتهاداً آخر له. ومـا بعـد الخلفـاء الراشدين ملك عضوض وصراع على السلطة، باستثناء الفلتات مثل عمر بن عبد العزيز، ونـور الدين الشهيد وصلاح الدين. وهذه الفترة رغم أنها فترة الاجتهاد والمذاهب والشروح. الـخ.. إلا إننا لا نرى فيها كلها سوى اجتهادات تصيب وتخطأ.. وما قد يعد منها صوابا وقتها قـد لا يعـد صواباً الآن. ولا نريد لهذا العصر أن يكون صورة طبق الأصل لعهود مضت. أو نعـيش عالـة على أئمة المذاهب.. وظهور أئمة أعلام مثل الشافعي وأبى حنيفة ومالك وأحمد بن حنبـل وبـن حزم وبن تيميه الخ. لا يعنى عدم ظهور أئمة آخرين في هذا العصر يكون لهم من الذكاء ومـن الورع ومن الإحكام ما كان للسابقين. بل إن الفقيه في هذا العصر يتأتى له من عدة العلم ووسـيلة البحث والتمحيص والترجيح ما لم يتأت للأئمة السابقين. فلو توفر له الورع لفاقهم وزاد علـيهم.

والأمر ليس أمر اجتهاد أو حرية فكرية فحسب. ولكنه كذلك تقوى وحذر من التهجم على الأحكام وإضفاء صفه الحلال والحرام على اجتهادات تخطأ وتصيب .

والتراث بعد لا يقتصر على الأحكام الشرعية ولكنه يضم كل الثقافات الإسلامية. وكل ما تركه العلماء والخلفاء والأدباء والشعراء من كتابات وتقاليد مما أثرى الإسلام ووسع آفاقه .

***

وفكرة تقسيم الإسلام إلى عناصر أو مكونات ليست من إبداعنا، فهناك أحاديث نبوية عن شعب الإيمان، وبعضها يجعلها نيفاً وستين أو وسبعين شعبة من إماطة الأذى من الطريق حتى لا إله إلا ا ، التي ترمز بالطبع إلى العقيدة. كما عالج السلف قضية الإيمان، وهل يزيـد ويـنقص، وهل العمل جزء من الإيمان أم لا. وتفرد الخوارج بأن قالوا إن العمل لا ينفصل عـن الإيمـان، ومن ثم فإن أي تقصير في العمل يكفر صاحبه ويجعله يستحق أشد العقوبات. وقال لفيـف مـن التابعين إن مرتكب الكبيرة ليس كافراً، ولكنه فاسق، وجعله المعتزلة منزلة بين المنزلتين وأضفى الجدل المعتزلى سحابة من الضباب والغيم على الموضوع، وأبعده عن الأذهان، بدلا من أن يقربه إليها. ولو أن المسلمين فقهوا وفهموا الآيات القرآنية والأحاديث الثابتة وفسروا بعضـها بـبعض لأخذوا الفكرة السليمة، وكان ذلك أفضل بمراحل من الأساليب الكلامية التـي طعمـت بعناصـر يونانية معقدة بعيدة كل البعد عن روح الإسلام وبساطته، فضلا عن أن هذا الأسلوب عجز رغـم كل الادعاءات المنطقية عن أن يلمس حكما خفية عديدة لفاطر السموات وجابل الطبيعة البشـرية ومقلب القلوب.. لا تدرك بالمنطق أو الحساب أو الكلام (وهو التعبير الإسلامي لكلمة – ديالكتـك – أى الجدل الذي قامت عليه الفلسفة اليونانية، واستغلته – فيما بعد – الماركسية) ..

من هذه الحكم واللطائف أن النفس الإنسانية ليست كتله صماء.. وليست قنـاة واحـدة تجمع الإيمان والعمل معا كما تصور الخوارج، بل ليست كالأواني المستطرقة التي ما أن تسكب فيها سائلا حتى يتطرق إليها جميعاً ويلزم فيها مستوى واحداً. إن النفس الإنسانية معقـدة كـل التعقيد، ومع أن التكوين العضوي للإنسان معقد أيضاً، فإن التكـوين العصـبي أشـد تعقيـداً، والتكوين النفسي أكثر الجميع. وهناك دوائر عديدة متداخلة تكاد تكون كل منهـا مغلقـة علـى نفسها، ولها منطقة نفوذ خاصة بها .

وهذا التركيب في النفس يماثل التركيب العضوي للمخ، فكل وظيفة أو نشاط في الجسم كالسمع أو اللمس أو الذاكرة أو المشي الخ.. لها منطقة في المخ خاصة بها، فإذا أصيبت شلت أو تعطلت الوظيفة. أو أن النفس الإنسانية كسفينة تبني من عدد من العنابر كل منها مغلق لا يوصل إلى الآخر بحيث لو أصيب بعضها بعطب وتدفقت إليه المياه فإنها لا تنفذ إلى بقية العنابر وتغرق السفينة. وبهذه الطريقة يمكن أن تصاب السفينة بعطب جزئي، ويمتلأ عنبر أو أكثر من عنابرها بالماء، ولكنها مع ذلك تواصل رحلتها .

وهكذا النفس الإنسانية تنقسم إلى ملكات كل منها مستقلة عن الأخرى، فقد يكون هناك الذكي، ولكنه لا يكون حتما المستقيم. ومن قبل تحير عمر أمام فجور القوى وعجز الأمين! وهناك من تفوق ملكاته العقلية.. ملكاته العملية فلا يستطيع القيام بكل ما يؤمن به .

وهناك العكس.. من يرجى دعاؤه.. ولا تقبل شهادته! .

وهناك من هو مثل شوقي- إذا تقدم ذو تقوى بصالحة، قدم بين يديه "عبرة الندم" وقد تكون عبرة الندم أقرب إلى ا من أي صالحة أخرى ..

ونستطيع أن نعد العشرات أو المئات من هذه النماذج. فضلا عن تأثر النفس الإنسانية بعوامل تربوية أو بيئية مما يزيد في التعقيد والتعدد. وما يهمنا، هو أن ا تعالى العليم بكل هذا أفسح مجالا لكل واحد لكي يثبت إيمانه بالطريقة التي تسمح بها طبيعته وملكاته.. وهو يثاب عليها وتعوض زيادته في ناحية تقصيره في ناحية أخرى. فقد يكون حسن العبادة. سيئ الخلق، فيثاب على حسن العبادة. ويجازى على سوء الخلق، وتتوقف النتيجة الأخيرة على الزيادة أو النقص في درجات كل. وقد عبر النبي ﷺ عن ذلك عند ما قال "أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصوم وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار (مسلم والترمذى وغيرهما) وهذه أشمل صور المقاصة، وهي توضح لنا أن الإسلام ليس عنصر واحداً، ولكنه مكونات عديدة، إنه حياه، وكل عنصر من هذه العناصر له أهميته الخاصة .

على كل حال، فإن إيضاح هذا أدخل في باب "طبيعة وميكانزم الإسلام" الذي سنعالجه في القسم الثاني من هذا البحث إن شاء ا .

الفصل الرابع

الإسلام عقيدة ...

الإسلام أولا وقبل كل شئ عقيدة، وهو ما ينطوى على أمرين الأول الأسلوب الاعتقـادى والثاني ماهية العقيدة وبينهما ترابط الوسيلة والغاية. فلا يمكن معرفة ا ورسله وملائكته واليـوم الآخر إلا عن طريق الاعتقاد، أي التصديق برسالة الأنبياء الذين يوحي إليهم، ويعلمون بذلك ما لا نعلم، وليس بمشاهدة عين أو معاينة حِس أو إعمال فكر. وفي الوقت نفسه فـإن هـذا الأسـلوب الاعتقادى لم يكن ليعد سائغاً أو مقبولا لو لم يستهدف ا الذي يعلو على الإفهام ويستعصي علـى الحواس والأبصار .

والأسلوب الاعتقادى بهذه الصورة من خصائص الأديان الملازمة لها. ولكنـه لا يعنـى انتفاء وجود أسلوب النظر العلمي والعقلي إلى جانبه إما كعامل مساعد بالنسبة للعقيدة – أو كعامل أساسي في بقية مكونات الدين غير العقيدة، ولكنه في كل حال لا يغنى عن الاعتقاد، لأن إعمـال الفكر يهدى إلى الإيمان با ، ولكنه قد يعجز عن التوصل إلى عالم الغيب، كما قـد يشـتط بـه التصور الفكري، لأن الأذهان والعقول – حتى أعظمها – غير معصومة، وتتأثر بعدد من العوامل المرحلية أو البيئية أو الذاتية التي تؤثر على موضوعية أحكامها .

فالأديان يمكن أن تتضمن أسلوبي الاعتقاد والنظر العلمـي ولكـن النظريـات العلميـة والتجارب التطبيقية لا تحتاج إلى الاعتقاد، وهي تفرقة هامة للغاية على بساطتها لأنهـا توضـح مجالين لكل منهما أداته الخاصة في التعرف عليه والتوصل إليه .

وقد تعرض أسلوب الاعتقاد لهجوم على أساس أنه "غير علمي"، ولكن المؤمن لا يأبه لهذا النقد، ويرى أن القول بهذا هو الذي ليس علمياً. **أولا** لأنه ليس في جوهر العقيدة ما ينافي أو يضاد مثبتات العلم. وهذه تفرقة هامة. فالأسلوب الاعتقادى قد يعتمد على طرق غير الطـرق العلميـة ولكنه لا يتقبل ما يضاد أو ينافي بدائه العقل الرشيد وأصول الفكر السليم، وهذا ما يفصل الاعتقاد الإسلامي عن الاعتقاد الوثني أو أي اعتقاد "في" خرافات يرفضها العقل والنظر السليم. **وثانياً** لأن أسلوب العلم في التعرف على الحقائق ليس هو الأسلوب الوحيد. إن التجربة الروحية، والبصـيرة

والإلهام والاستشفاف والوجدان كلها وسائل يمكن أن تؤدى بنا إلى حقائق. وقصارى ما يمكن أن يقال في هذا هو ما أشرنا إليه من أن النظر العلمي هو الأسلوب في العلوم والتجارب التطبيقية، وليس في مجالات الروح أو ما وراء الطبيعة. **ثالثاً** لأنه ليس من العلم من شئ أن نطلق على شئ نجهله أنه غير علمي لمجرد جهلنا به، فنحن نجهل الكثير، وكان آباؤنا يجهلون أكثر منا، ومع هذا فقد كانت هذه **المجهولات موجودة. وقد قال أحد الفقهاء المسلمين "لا أدرى نصف العلم" وهذه هي الروح العلمية وإذا كان للعلماء المحدثين ما يضيفونه فهو أن لا أدرى قد أصبحت أكثر من نصف العلم! لأن الكشوف والأبحاث الأخيرة أثبتت أن معرفة الإنسان على كثرتها ليست ألا قطرة في بحر المعرفة. وصدق ا ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ .**

وهناك عامل آخر فرض الأسلوب الاعتقادى وأوجبه هو أن الاعتماد على النظر العقلي لا يتهيأ لكل الناس، فقد كان وسيظل أسلوب القلة في حين أن أسلوب الاعتقاد هو سبيل الكثرة وأسلوب الجماهير. والأديان مذاهب جماهيرية فأرسل ا الرسل هاديين ومعلمين ومربيين ومقدمين للجماهير فلسفة كانت تعز عليهم لولاها. ومن هنا أصبح الدين فلسفة الجماهير، كما أن الفلسفة هي دين النخبة. ويعلم الذين ينقدون هذا السبيل أن الصفة الجماهيرية للاشتراكية إنما جاءت عن طريق الاعتقاد. وليس عن طريق النظر العلمي أو المعادلات الجبرية أو المضاربات الاقتصادية التي يحفل بها "رأس المال". وهناك بعد أفضلية أخرى للاعتقاد الديني على غيره هي أن الاعتقاد الديني لابد وأن يقوم على أساس أخلاقي في حين أن أي اعتقاد قد لا يتوفر له هذا الأساس .

وهناك مبررات ودواع أخرى للأسلوب الاعتقادى سنعرض لها في مناسبات تالية ...

والعقيدة الإسلامية، وهي أكبر وأهم عنصر من عناصر مكونات الإسلام، تتضمن الإيمان با . وبرسالاته. وباليوم الآخر أو عالم الغيب وسنعالج كل نقطة على حدة .

***

أ. الإيمان با ..

الإيمان با هو حجر الأساس في كل دين. وواسطة العقد فيه وفكرة ا هي الشمس الباهرة التي كشفت الأديان عنها والإضافة الثمينة التى أسهمت بها. ذلك أنه عندما يظهر للناس طرف من هذا السر العظيم وينير نفوسهم المظلمة شعاع من أشعته. تغمرهم سعادة الإيمان.

وراحة الضمير واستقرار التائه ويكتسبون قوة كبيرة يكبحون بها جماح العواطف ويقاومون بهـا مغريات الانحراف ويلزمون أنفسهم الخضوع لما تقضى به تعليمات الدين. ويقوم على أساس هذا الأيمان الشخصي والالتزام العام سلام النفس ونظام المجتمع ...

وقد مرت "فكرة" - ونقول فكرة - ا أو تصور الناس لها. أو حتى إبراز الأديان لهـا - برحلة طويلة تتلاءم مع الرحلة الطويلة التي أراد ا للبشرية أن تقطعها. فلم تستطيع البشرية في طفولتها أن تتصور ا التصور الذي يقرب من الحقيقة. لأن هذه الحقيقة كانت أعلى من فهمهـا وقتئذ، رغم تلك النفثة الإلهية في النفس البشرية التي كانت تقودها إلى ا ، ورغـم أن مظـاهر قدرته وآيات قوته. وظواهر إرادته كانت تشعرها به، كانت البشرية كما وصفها، فأحسن وصفها شوقي :

رب شقت العباد أزمان لا كتب بها، تهتدى ولا أنبياء
ذهبوا في الهوى مذاهب شتى جمعتها الحقيقة الزهراء
فإذا لقبوا قوياً آلها . . فله بالقـوى إليك أنتها
وإذا آثروا جميلا بتنزيه فإن الجمال فيك حباء
وإذا انشأوا التماثيل غـراً فأليك الرمـوز والإيماء
وإذا قدروا الكواكب أرباباً فالمراد الجـلالة الشماء
وإذا يعبد الملوك فإن الملك فضل تحـبو به من تشاء
وإذا تعبد البحار مع الأسماك والعاصفات والأنـ ـ ـواء
ونجوم السماء والإسلام والأرحـ ـام والأمهات والآبـ ـ ـاء
لعلاك المذكرات عبـيد خضـع والمؤنثات إمـاء
جمع الخلق والفضيلة سر شف عنه الحجـاب فهو ضيـاء

***

ونستطيع أن نتابع فكرة ا من الإله المحلى الذي أظهرته الديانات الوثنية عنـدما كانـت مقصورة على بلد أو قطر أو جنس، حتى آخر صورة له في "جيهوفا" إله بنى إسرائيل كما تظهره كتبهم المحرفة [1] كاله قبلي يؤثر بنعمته شعبه المختار وحده ويجعل بقية الناس تبعاً لـه وخـولا

١. يؤمن المسلمون أن اليهودية إحدى الديانات السماوية، وأن موسى نبي ورسول كريم، ولكن شريعته وديانته تعرضت لتحريف خـرج بها عن حقيقتها، والحديث هنا هو عن هذا التحريف .

ويسوقهم له بقضيب من حديد، حتى "الإله الإنساني" مثل إيزيس أو المسيح - كما تظهره الأناجيل المحرفة [1] هذا الإله الإنساني الذي قد يكون أباً أو أماً أو زوجة والذي يمثل صفات الحب والحنان وبقية الخصائص الإنسانية وتنحصر هيمنته على الإنسان، حتى الإله الكوني المطلق كما يظهره الإسلام والذي يدين له الوجود والأكوان كلها، ولا تحيط الإنسانية إلا بطرف ضئيل من علمه وإرادته ..

والمسلمون لا يستشعرون حساسية من هذا السياق، لأن ا تعالى وضع للبشرية نظاماً تتجلى فيه إرادته، ولأن الإسلام يفترض عجز البشرية عن الإلمام بكنه الألوهية الحقة، وحاجتها إلى الأنبياء الذين ينقلون القبس المضيء عن طريق الوحي. فضلال البشرية وتخبطها واجتهادها لا يمس قداسه الفكرة، بل على العكس هو ينم عن أصالتها، وأنها لازمت البشرية منذ طفولتها وكبرت معها، كما عملت هي نفسها على نمو البشرية.. كما لا يستشعر المسلمون حساسية من فكرة أن الخوف من عناصر الطبيعة أو الرجاء فيها هو الذي ساق البشرية إلى فكرة الإله. لأن المسلمين يؤمنون بأن كل الظواهر الطبيعية إنما هي مجلي إرادة ا وقوته... وهذا كله يتم طبقاً لمشيئة ا السابقة وقضائه للبشرية أن تسلك هذا المنهج من الطفولة حتى البلوغ حتى الشباب ثم الكهولة حتى يأذن ا بأفول هذا الكوكب، كما أذن بوجوده من قبل، وليست البشرية بأفراحها وأتراحها، نزواتها وحكمتها، سلمها وحربها.. فنونها وآدابها، وملايين السنين التي تقطعها، إلا قطرة من بحر أو حرف من كتاب في حساب ا عز وجل ...

وقد ضرب القرآن المثل بإبراهيم أبى الأنبياء في بحثه عن ا .. وكيف أنه لما رأى كوكبا قال هذا ربى ﴿فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدني ربى لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى. هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ .

وقبل هذه الآيات مباشرة من سورة الأنعام ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ فلا عجب إذا أثار ﴿ملكوت السموات والأرض ﴾ الحاسة الدينية في النفوس، ودفعها إلى التفكير في ا . والجديد الذي يضيفه الإسلام هنا هو أن النفس الإنسانية وإن قادتها فطرتها السليمة إلى ا –خالق السموات والأرض - فإنها تعجز عن التصور الدقيق

---

٢. ينطبق على المسيحية ما ينطبق على اليهودية، والمقصود هنا المسيح الذي حرفت طبيعته ورسالته .

أو الكامل ، ومن ثم يصبح من الضروري إرسال الوحي الذي يضع الأمور في نصابها حتى لا تضل النفوس في التفاصيل، أو تتحكم العوامل البيئية الذاتية والمتغيرة في الفطرة السـليمة، فقـد يتصور الناس في القطب الجنة شمساً ودفئاً، كما يتصورها الناس في خط الاستواء برداً وسلاماً. ومثل هذه التصورات طبيعية جداً في غيبة الرسل والوحي حتى تبلغ البشرية بصفة عامـة سـن الرشد وتستطيع أن تدرك وتفهم ديناً واحداً هو آخر الأديان وأشملها وهو الإسلام .

وهناك سبب آخر ذكره القرآن كثيراً لإيضاح أسباب توالى الأديان والرسل، وعدم الاكتفاء بنبي واحد، ذلك هو التحريف الذي تعرضت له الكتب المقدسة. وهو سبب تـوحي بـه طبيعـة المجتمع وعدم وجود وسائل التسجيل والقرون الطويلة التي مرت قبل إثباتها كتابـة، واخـتلاف الرواة. وقد أكدت الدراسات التاريخية هذا كله. وبالنسبة لليهودية فقد تحطمت ألواحها فـي عهـد موسى نفسه، ثم توالت الترجمات بالمسخ والتشويه حتى أبرزت لنا أخيراً ما سمى "العهد القـديم" والنظرة العابرة لما حواه من خرافات وأساطير وتعبيرات مشينة وقصـص جنسـية فاضـحة لا تحوجنا إلى دليل على التحريف. أما بالنسبة للمسيحية، فإن عدم كتابه الأناجيل إلا بعد فترة طويلة واختلاف ترجمتها وانحصارها بعد ذلك في أيدي الكهنة لفترة طويلة.. يؤكد كذلك التحريف. وقد قرأت أخيراً ترجمة لكتاب ألماني بعنوان "من لوثر إلى هتلر" ترجمه رمزي يسى وهـذا الكتـاب يبرز زعيم البروتستانتية، ورائد حرية الفكر في صورة مخالفة. فهو كاذب متعصب، انحاز إلـى جانب النبلاء ضد الفلاحين خلال ثورتهم التعسة سنة ١٥١٥، وحرض النبلاء على تقتيل الفلاحين والتمثيل بهم، لا يتورع عن الكذب إذا وجد في ذلك مصلحه فقال "ماذا يضر الإنسـان إذا كـذب كذبا محموداً بسبب أمر ذي أهمية وفي سبيل الكنائس المسـيحية" (ص٧٧) وقـال "إن التزامنـا الصدق ليس ضروريا بالمرة – أنني أعد كل شئ موجه ضد فساد البابوية وغوايتها مباحا لا غبار عليه" (ص ٧٤) .

ويستطرد مؤلف الكتاب :

" ولم يكتف لوثر بذلك، بل كان على أتم استعداد في سبيل تفسير الإنجيل على النحو الذي يريد أن يمسخ ما شاء من نصوصه ويقول المؤرخ جانسيين في ذلك "إن أكبر إثم أرتكبه لوثر هو أنه لم يتورع في سبيل تعزيز مذهبه عن مسخ فقرات عديدة من الإنجيل وتزويرها .

"وقد يضيق المقام عن إثبات تلك الفقرات المتعددة التي أضاف إليها لوثر أو حذف منها أو حرف فيها لكي يوائم بينها وبين مذهبه الجديد ولا شك أنه فعل ذلك عن عمد وقصد. ولما كان قد

اثبت هذا الكثير من المؤرخين الذين لا يتطرق إلى بحوثهم أي شك، فإن الإطالة هنا تعد تكراراً لا مبرر له. ويكفى أن نحيل القراء إلى جانسيين مجلد ١٤ ص ٤١٨ "ا هـ ص ٧٤" .

فإذا كانت المنازعة ما بين لوثر والبابوية تدفعه إلى هذا في القرن السادس عشر، فألي أي مدى وصل التحريف بفعل تلك المنازعات الدموية التي مزقت العالم المسيحي من القرن الرابـع حتى القرن السادس عشر.. وفي وقت كانت الأمية فاشية. ولم يكن الإنجيل مطبوعاً بحيث لم يكن هناك عقبات عمليه تحول دون التحريف ..

وليس من الضروري أن يكون التحريف عملية كيدية أو تحقيقاً لأهواء خاصة أو لمكاسب يظفر بها السدنة والكهنة، وإن كان هذا بالطبع يحدث، ولكن التحريف يمكن أن يحدث لمجـرد أن "طال عليهم الأمد" أو لغلبة الضلالة على الجماهير أو لميل الناس إلى القديم المـألوف وتأثرهـا برواسب الشرك. وهو ما حدث لبنى إسرائيل عندما حنوا إلى عبادة العجل وكفروا بموسى ..

وفي مثل هذه الحالات لا يقتصر التحريف على التفصيليات ولكنه يتناول جوهر العقيـدة، لأن رواسب وجذور الوثنية القديمة المتغلغلة تتغلب على مبادئ الدين الجديد، فلا تلبث أن تمسـخ حقيقته وتلبسه ثوباً وثنياً. وقد نشأت المسيحية في ذروة الوثنية اليونانية/ الرومانية التي طفحت بها المثلوجيا اليونانية وكتابات هوميروس وغيره، وكان ابرز شخصية فيها هي شخصيه زيوس الذي كان جديراً بأن يلقب باله الخيانة الزوجية بدلا من لقب "رب الأرباب" أو كبير الإلهة، فقد كان من دأب هذا الإله أن يتقمص في مختلف الصور البشرية أو الحيوانية ليواقع نساء البشر وينجب منهن أنصاف آلهة كهرقل مثلا، كما صورت المثيلوجيا أيضاً كيف أن "افرديت" آلهة الجمـال قربـت رمانة من بين ثدييها، وأصبحت حاملا، وبعد ستة أشهر وضعت طفلها من أحد جنبيهـا حتـى لا تمس عذريتها لأن افرديت هي الأم العذراء[1].

بل أن التاريخ اليوناني روى لنا أن الاسكندر كان نصف إله لأن "أبولـو" تغشـى أمـه "أوليمبيا" ونقلت كل هذه الصور والأفكار الوثنية إلى العالم الروماني فأله القياصرة ومنحهم نسـباً إلهيا .

وقد وقعت المسيحية الناشئة بين يدى "رسل" من اليونانيين والرومان كانت هذه الرواسب متأصلة فيهم بحيث غلب التقليد الوثني القديم، وحدث ما يشبه أن يكون حاله "إسقاط" وثنى علـى المسيحية فأولت الولادة العذراء للمسيح التأويل الوثني. واعتبر الابن ألها. وعادت الوثنية القديمة

---

١. النار المقدسة تأليف . ب . ز . جولد برج ص ١٣٦ .

نفسها، ولكن في صورة مقلوبة، فلما لم يعد الإنسان إلها، أصبح الإله إنسانا، وليس هناك فرق لأن المناط في الوثنية هو التجسيم للإله. سواء الإله إنساناً، أو الإنسان إلها ..

ونتيجة لهذا كله قام بناء لاهوتي عسير، صعب، معقد، لا يفهم أو يساغ يضم الأب والابن والروح القدس. وجعل المسيح إلها وإنسانا، أو إلها، وليس إنسانا، أو إنسانا ينحدر من إله، وصاب هذا الإله المسكين ليفدى ذنوب البشر، وليكفر عن الخطيئة الأصلية .

وتقبلت أوربا الحديثة هذا التصور الوثني لأنها لا تزال حتى الآن تعـيش فـي حضـارة اليونان والرومان. بل إن حضارة الرومان واليونان تعيش بعد الميلاد على ضـفاف ألتـا يمـ ز والسين أكثر مما عاشت قبل الميلاد على هضاب الكابيتول أو ضفاف التيبر .

مع هذا، ومع أن الفقه المسيحي حاول بكل قوة تفسير هذه العملية وتسويغها، فإنها كانـت سببا في خلافات أسالت دماء البشر ما بين الشيع المسيحية المختلفة، كما أعلنـت فرقـة أخـرى كفرها بكل هذا اللاهوت، وأنها لا ترى في المسيح أكثر من نبي. وأبعدت فكرة **"الإله الشخصـي"** كل المفكرين، وكانت السبب في عزوف معظمهم عن المسيحية، وأخذ الانطباع السيئ عن الدين، أما الذين تقبلوا المسيحية فقد اعتبروا كل ما جاء في الأناجيل من عبـارات "ابـن ا " أو "الإلـه المخلص" والفداء والخطيئة على أنها عبارات مجازية، وان المسيح ليس إلا داعية عظيم أو نبيـاً. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن هذا هو إيمان كل المفكرين المسيحيين الأوربيـين. وان فكـرتهم عـن المسيح أقرب إلى القرآن مما هي إلى الإنجيل، ولا أستطيع أن أحصى شواهد ذلك فما من كتـاب عن مفكر أو مصلح أو داعية أقرا عنه إلا وأرى أنه مثل أينشتين، يكفر بالإله الشخصي ويـؤمن بالإله الكوني، أو مثل فلورنس نايتنجل التي تؤمن بالإله الأب وتكفر بالإله الابن.. أو مثل شـو.. الذي قال "إن المسيح قد محي وبنيت المسيحية التاريخية على مذبح جيهوفاً المقدس بالمسيح نفسه ضحية لها" [1] أو مثل فولتير الفرنسي وتوم بين الإنجليزي اللذين كانا يؤمنان بالتطور الخالق أو الإله الطبيعي أو خرشوف الروسي الذي حق له أن يتهكم "إننا لن نعتزم الحرب في سبيل جسـد الإله ولن نغطي المعمورة بالتوابيت في سبيل تابوت، فإن هذا هو ما كان يحارب الصليبيون فـي سبيله" [2] أو مثل المفكر "جود" الذي لخص نتائج كتابه عن "ا الشر" .

١. مقدمة الفتاة السوداء الباحثة عن ا – ج : ب . شو .
٢. مجلة "كاثوليك دايجست" عدد فبراير سنة ١٩٥٨ ص ١٠٥

"إن دعوى المسيحية مقبولة ما ظلت مقصورة على تأكيد وجود الإله، وأنه يعنـى ويهـتم بعالمنا، وأنه مبدأ الخير واصل النظام الأدبي في الكون، وأنه بالتالي أصل التجربة الأدبيـة، أي معرفتنا بالخير وتفضيلنا له على الشر ومقتناً للشر وكفاحنا ضده، كما تقبل أيضا دعوى أننـا إذا صلينا له، فيمكن أن نوجد صلة به، وأنه بفضل هذه الصلة يساعدنا ضد الشر. كما يبدو معقـولا كذلك بحكم الأدلة، أن نفترض أنه من وقت لآخر يخلق أو يظهر أفرادا موهوبين ليقدموا تعبيـراً واعيا لأغراضه وليكشفوا قانونه الذي هو القانون الأخلاقي. وهؤلاء الأفراد الموهوبـون بصـفة خاصة هم المعلمون الدينيون والصوفيون والأنبياء .

إن دعوى المسيحية غير مقبولة ما ظلت تؤكد أن المسيح ابـن ا أو أنـه بـأي طريقة أخرى أو لأي سبب آخر إلهي وأن ا قد خلق الإنسان ليحبه، ولكن الإنسان خلال ممارسته لإرادته الحرة لم يعد أهلا لهذا الحب وعوقب بالسقوط، وأن الإنسان هو وحـده من بين المخلوقات من يملك نفساً أو شخصية [1] "

***

أما الإسلام فإننا لا نرى قط تفسيراً لاهوتياً لفكرة معقدة، ولا نرى تجسيماً بـدائياً كالـذي تصوره الأولون في طفولة البشرية، ولا نرى تخصيصاً بجنس أو مكان أو زمان. . إن ا في الإسلام يمثل التجريد التام من كل تجسيم أو تشبيه إلى درجة يطلق م كالعدل والحق والسلام والنور، فهو نور السموات والإسلام وإليه يصعد الكلم الطيـب، والعمـل الصالح يرفعه، ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شئ لا يحيطون بشيء من علمه، وما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم، ولا خمسة إلا وهو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثـر إلا وهـو معهم أينما كانوا .

ويقترب من هذا التجريد، ويعززه، ويقطع الطريق على أي صورة من صور الشـرك أو الوثنية، ويحول دون أي إثارة من التحريف. تأكيد وحدانية ا فلا إله إلا ا . ﴿قل هو ا أحد ا الصمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾ والآيات التي تفيض فـي هـذا المعنـى وتؤكـده وتستأصل استئصالا" مظنات الشرك متعددة ومشهورة .

ولا تقتصر أهمية التوحيد على ما أشرنا إليه من قطع الطريق على كل مظنات الشرك أو تلاعب التصور الإنساني، إذ أن هناك معنى إيجابي رائع، لعل أفضل من أشار إليه ووضحه مفكر

---

١. ا والشر تأليف ج . إ . م . جود ص ٣٥٩



مسلم هندي هو همايون كبير الذي رأي في إحدى المقالات أن "ثلاثة أفكار لابد منها لنمو العلم أولاها: الاعتقاد بأن الكون متجانس، وليس منقسماً إلى ميادين لكل منها قوانين خاصة تختلف عن القوانين التي تسود في الميادين الأخرى. وثانيتها الاعتقاد بأن قوانين الطبيعة متسقة، وليست عرضة للتغيير أو التبديل. وثالثتها الإيمان بقيمه الوحدات كل على انفراد .

والفكرتان الأولى والثانية بينهما صلات واضحة، ويمكن اعتبارهما في الواقع وجهين لحقيقة واحدة، فبغير الكون الموحد لا يكون قانون كلى. ولو وجد عالمان أو أكثر فإن هذا التعدد يكون أساسه التمييز، وتكون هذه العوالم متميزة بقدر خضوعها لقوانين مختلفة. لهذا فإن كلية القانون تعتمد على الاطراد والاتساق في الكون. وقوانين الطبيعة لا يمكن أن تكون متسقة ما لم تكن الطبيعة التي تعبر عنها هذه القوانين متسقة هي أيضاً .

والإيمان بالاتساق في الطبيعة يمكن أن يفسر على أحد هذين النحوين: إذا كان الكون يعتبر ملكاً لألهة مختلفين أو ربما متنافسين يتنازعون لسلطان، فإن من البديهي في هذه الحالة ألا توجد قوانين متسقة تحكم الكون .

والإله الواحد معناه كون واحد، وإذن فمعناه أيضاً قانون واحد، ولهذا كان التوحيد أحد الشروط اللازمة لظهور العلم .

كذلك يربط همايون كبير بين التوحيد الإلهي والديمقراطية فيقول :

"والواقع إن فكرة وحدة القانون لم تظهر حتى استقرت فكرة وحدة الكون، فلو كان هناك إلهة مختلفون يتنازعون ملكية مناطق العالم لكان من الواضح أنه لا يمكن تطبيق نفس القانون على جميع الناس" ..

وهو يرتب على هذا أن الإيمان الراسخ بتعدد الآلهة هو السبب في أن المجتمع الأثينى – مبدع الديمقراطية – لم يكن ديمقراطياً حقيقياً، وبالمثل القانون الروماني، ويضيف همايون كبير

"إذا نحن حللنا المبادئ الأساسية للإسلام ظهر لنا تشابه كبير بينها وبين مبادئ العلم والديمقراطية، فإذا أضفنا إلى هذا التشابه أن التقدم المطرد قد أتى مباشرة بعد الإسلام، وجدنا

مبرراً قوياً للقول بوجود علاقة قوية بين الأمرين، وليس ما يميل بنا إلى هذه الفكرة فـي المحـل الأول هو كثرة عدد العلماء العرب المتصل في تقدم العلم منذ ظهور الأرض [1] .

وبالطبع، فإن همايون كبير لم يحاول أكثر من أن يفسر ما أجمله القرآن في إعجازه فـي جمله واحدة "لو كان فيهما آلهة إلا ا لفسدتا، فسبحان ا رب العرش عما يصفون" والضمير هنا يعود – كما هو معروف – إلى السموات والإسلام .

وهناك ناحية أخرى قد لفتت – على أهميتها – الكتُـاب ..

فعندما شدد الإسلام على معنى الوحدانية، فإن ذلك كان للقضاء على كـل المنافـذ إلـى الوثنية أو الآثار الباقية لها، وفي هذا السبيل اعتبر كل تمثال وثناً وحطمه، فإذا قيل إن الناس لـن تعبد الأصنام والأوثان، فليس لهذا التشديد على الوحدانية حكمة. فالرد أن ينظر الناس فيما بيـنهم وسيرون الأوثان تسد عليهم المنافذ وتملأ الميادين وتتصدر الهيئات العامة ! وفي بعـض الـدول الاشتراكية توجد تماثيل للينين أو ماركس أو ستالين بأحجام تفوق أحجام تماثيل رمسيس الثـاني، كما توجد في أمريكا أيضاً تماثيل لواشنجتن ولنكولن في مثل هذه الأحجام. ومجرد وجـود هـذه التماثيل ذات الأحجام "المهولة" الرهيبة، وما يحوطها من أساطير تنسجها ليل نهار أجهزة الدعاية توهن في شخصية الفرد وتؤدى إلى نوع من شرك الذين قالوا "إنما نعبدهم ليقربونا إلى ا زلفى" أو إلى نوع من الوثنية في تلك المجتمعات التي لا تؤمن با ! فلا جرم إذا شدد الإسلام مـرات ومرات في وحدانية ا حتى يمكن صد جائحة هذه الوثنية العصرية الجديدة، وقد يكون المجتمـع الحديث أحوج، من المجتمع القديم، إلى ~~صيحة القرآن ﴿إنما تعبدون~~ إفكاً﴾ .

وفي هذا التجريد والتفريد تقترب صورة ا من الصورة التي تخيلها الفلاسفة والمناطقـة والرياضيين، صورة القيم المجردة، والمثل العليا من خير، أو عدل أو حق أو سـلام أو القـانون الواحد الأول والآخر الظاهر والباطن .

وفي مقابل هذا فإن القرآن يقرب صورة ا إلى الإفهام بتعبيرات تعطى معنى الحياة مثل ﴿ثم استوى على العرش﴾ ﴿يد ا فوق أيديهم﴾ ﴿لا يكلمهم ا ولا ينظر إليهم﴾ ﴿قد سمع ا قـول التي تجادلك في زوجها..﴾ أو يلحق به صفات الجبروت الجبار – المتكبر – المتعـال.. الـخ. . .

---

١. مقتطفات من كتاب "العلم، والديمقراطية والإسلام" تأليف همايون كبير ترجمة عثمان نويه – الإدارة العامة للثقافـة – وزارة الثقافـة والإرشاد القومي الصفحات من ٩ إلى ١٩ . وقد كان همايون كبير وزيراً للثقافة والبحث العلمي في حكومة الهند .

ومن الواضح بالطبع أن هذه التعبيرات إنما يراد بها مجرد التقريب وأن كلمـات اليـد، أو الأذن الخ.. إنما هي ليفهم الذين لا يفهمون التجريد، كما أن صفات الشدة والبأس والجبروت والانتقـام لابد منها أيضاً حتى تخشع نفوس الظلمة والمتجبرين، والذين لا يفهمون إلا لغة القوة. وقد جبـل الناس على طبائع شتى ومنهم الذين لا يفهمون إلا هذه اللغـة. ويقابـل صـفات الجبـروت والانتقام.. صفات العدالة والرحمة والرأفة وأن كل سورة قد توجت باسم "الرحمن الرحيم" .

ومن أبرز خصائص طريقة الإسلام في الاستدلال على .. الربط ما بين .. وما بين آيات خلقه الناطقة بعظمته المسبحة بقدرته سواء كانت ظواهر كونية أو قوانين طبيعية، فالسموات التي رفعها من غير عمد.. والنـجوم ببروجها ومواقعها.. والشمس والقمر والليـل والنهـار " لا الشمس ينبغي أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون" والأمطار التي تنـزل إلى الأرض فتحييها بعد موتها ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها مـن فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكـرى لكـل عبد منيب، ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلـع نضيد. رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا، كذلك الخروج﴾ والأنعام والطيور، والحياة والموت، وهذه الأجيال والقرون التي توالت بعضها تلو بعض، وآثار الحضارات البائدة التي خلفوها مـن بئـر معطلة أو قصر مشيد ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوماً آخرين، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾ .

والحق أنه ما من واحد يقرأ القرآن إلا ويفترض أن يكون المسلمون أكثر النـاس حبـاً للطبيعة، وتذوقاً لمشاهدها، وإلماما بعلوم النبات والحيوان والجيولوجيا والبيولوجيا والظـواهر الجوية والفلك.. وأن يكونوا أكثر الناس ارتحالا تطبيقاً لتوجيه القرآن المتكرر والمترادف الذي يبدأ بكلمة ﴿ قل سيروا في الإسلام ﴾ .

ويماثل توجيه القرآن في التعرف على عن طريق خلقه، الحديث عن قدرته الشـاملة ﴿وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء﴾ ﴿يا بنى إنها إن تك مثقال حبة مـن خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو فـي الأرض يـأت بهـا إن لطيـف خبيـر﴾ ﴿والسماوات مطويات بيمينه﴾ .

وأخيراً فإن رمز الكمال الأسمى، ولكن هذا الكمال مطلق، أما الكمال الإنساني، كمـا نفهمه، فأسلوب الإسلام ليس نسبته إلى ، الذي يعلو على المقـاييس الإنسـانية ولكـن تقـديم

شخوص أحياء يمثلون أقصى ما يمكن للطبيعة الإنسانية أن تصل إليه. هم الأنبياء، كمـا يحفـل القرآن بالتوجيهات الأخلاقية التي يريدها ا للمؤمنين .

وقد يسأل سائل عن الحكمة في هذا التصوير المعجز، الواضح، المحدد في الإسلام .

إن هناك أكثر من حكمة، فمن ناحية، فإن الإسلام الذي لا يمارى ولا يمالى يعلم حق العلم أن الإنسان بحكم تكوينه ليس إلها، وما ينبغي له أن يكون إلها، وواقع الحال يثبت هذا، فلن يمكن بالطبع أن يكون كل واحد إلها.. لأنه لن يجد من يتأله عليه! وتاريخ الفراعنة والملوك والأبـاطرة الذين ألهوا في العصور الأولى بما فيهم أفضلهم مثل تحتمس والإسكندر وقيصـر والإمبراطـور الرواقي المفكر ماركس أورليوس أدلة ثابتة على غلبة الضعف والخطأ والنزق والطيش، دع عنك بقية الطواغيت الذين الهوا فأذلوا الشعوب وطغوا فيالأرض. وليس مـن الضـروري أن يكـون الإنسان إلها، لتظهر طبيعة الغشومة والظلام الكامنة فيه، إذ يكفى فحسب أن يكـون حاكمـاً.. أو رأسمالياً بل إن الكتاب والمفكرين يكشفون عن هذه الطبيعة نفسها عنـدما يـزدهيهم الغـرور أو يتملكهم التعصب، بل إن مجرد "بسط الرزق" للناس يغريهم بالطغيان، وقد طغى الأغنيـاء علـى الفقراء.. وطغت الدول الغنية على الدول الفقيرة وبغى بريطانيا طـوال القـرن التاسـع عشـر، وعربدة أمريكا في القرن العشرين دليل على ذلك .

لا يمكن إذن للإنسان أن يكون إلها، ولابد له من إله، وبقدر ما تكون صورة هـذا الإلـه واضحة، قوية، لا لبس فيها ولا غموض، مهيمنة على الإنسان، وبقدر ما تمثل هـذه الشخصـية العدل، والقدرة، والحكمة والمثل الأعلى، بقدر ما يؤمن الانحراف ويكفل الاتباع، وبقدر الغموض والتميع فيها بقدر ما يكون التحايل والتملص وبقدر ما لا يمس الإيمان بها إلا طبقة سطحية ضحلة من النفس .

وأي دين لا يعترف بالإله الأعظم لا يكون له قيمة ولا يقدر له الاستمرار أو البقاء، فضلا عن التأثير على إتباعه. وقصة الإله الإنساني أي الإله الذي يبدعه أو يخلقه الإنسان تثبـت ذلـك على مدار التاريخ سواء فيها الإله الوثني القديم الذي صنعه العربي من العجـوة ! والإله الـذي أراد روبسبير أن يرمز به إلى الكمال المعنوي أو الذي حاوله السلطان الهندي جلال الدين أكبـر. وقد أنتهي عدد كبير من المفكرين إلى "ضرورة" أو وجاهة وجود ا . وقد كان فولتير ذلك الهدام الكبير هو الذي قال "إذا لم يكن موجوداً لوجب أن نوجده" كما قال وليم جيمس "ينبغي لنا كفلاسفة، ومن أجل تحقيق غايتنا من إيجاد نظام أخلاقي واحد أن نفترض وجود الإله، وأن نتمنى انتصـار

الدين على اللادينية" [1] . وفي الاتحاد السوفيتي أيضاً وجدت مع أوائل القرن جماعة باسم "الباحثين عن ا " بذلت جهدها للتوفيق بين فكرة ا والماركسية ولكن الجماعة اختلفت وانبثقت عنها مجموعة جديدة لا تعمل للبحث عن ا .. ولكن لبناء ا !

والفرق بين الاتجاهين هو في مفهوم ا في كل اتجاه، فالباحثون عن ا ظلوا مرتبطين بالفكرة المسيحية، أما البناة فإن ا – في نظرهم – لم يوجد بعد.. ولكن جهد الإنسانية الجماعي يجب أن يبنى إلها جماعياً اشتراكياً سامياً، ووجدت هذه النظرية في المفكر الاشتراكي "بوجدانوف" رفيق لينين القديم ظهيراً وفيلسوفاً، كما فتنت عدداً آخر من الشيوعيين القدماء وأيدها الكاتب مكسيم جوركى الذي كان قد آثر الاعتكاف في كابري عندما صدمه العنف الذي اتسمت به الثورة، وكان تأييد جوركى لهذه النزعة من القوة بحيث أكسبها أسم "مدرسة كابري"

وظهر أثر هذه الفكرة في رواية جوركى "الاعتراف" وانتقد لينين ذلك وكتب "إن القسم البلشفي في الحزب لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه مسؤولية مدرسة كابري" وعندما كتب جوركى مرة ".. وأما فيما يتعلق بالبحث ا فيجب تنحيته مؤقتاً" كتب إليه لينين "كيف ! ألست ضد البحث عن ا إلا مؤقتا، إذن فقد كنت تعارض البحث عن ا لتستعيض عن ذلك ببناء ا . إن البحث عن ا لا يتميز أبداً عن بناء أو خلق أو ابتداع ا .. كما أن الشيطان الأصفر لا يتميز عن الشيطان الأزرق !!" .

ولعل أفضل محاولة لإيجاد ديانة إنسانية هي ما حاوله الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت صاحب المذهب الوضعي الذي كفر بغيبيات الأديان ولاهوت الكنيسة. فوضع أسس ديانة إنسانية تقوم على المعنويات والمحبة وتستهدف التقدم ولا تدين لكنيسة أو تؤمن بإله فوق البشر. وحاول أن يطبق هذه الفكرة في بريطانيا تلميذه المخلص فردريك هاريسون الذي ظل رئيساً للجمعية الوضعية في بريطانيا طوال عشرين عاماً. وكان هاريسون شخصية بارزة في المجتمع البريطاني المثقف. وناصر كل قضايا العدالة كالحركة النقابية البريطانية. وكان أحد الذين احتجوا على ضرب الأسطول البريطاني للإسكندرية في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وتبرع للدفاع عن عرابي .

فماذا كانت نتيجة كفاح وجهاد هذين المفكرين البارزين ؟ لا شئ تقريباً. وقد وصف هكسلى محاولة كونت بأنها "الكاثوليكية مطروحاً منها المسيحية !" كما وصفت بياتريس وب، صديقة فردريك هاريسون الحميمة، والتي كانت نفسها تبحث عن عقيدة وإيمان الديانة الإنسانية

---

١. إرادة الاعتقاد لوليم جيمس ترجمة الدكتور محمود حب ا ص ١٠٧ .

بأنها "جهد باسل لإيجاد ديانة من لا شئ، ومحاولة تستحق العطف والرثاء من البشـرية البائسـة لتدير رأسها وتعبد ذيلها [1] " ...

والدلالة التي تدل عليها كل هذه المحاولات هي أن هناك حاجـة ملحـة لإيجـاد ديانـة استشعرها وحاول إيجادها مفكرون حتى من المدرسة الماركسية، وإذا كـان لينـين قـاوم ذلـك بشراسة، فهذا ما يعود إلى أن الماركسية نفسها ديانة تقوم علاقات الإنتاج فيهـا بـدور "القـدر" اليوناني القديم ويقوم "الحزب" فيها بدور الكنيسة، وقد فشل كل هؤلاء المفكرين رغـم إخلاصـهم وإيمانهم وأصالتهم الفكرية ..

وكل انصراف عن الأديان السماوية إما أن يكون تحولا نحو الوثنية، أوعبـادة للطغاة من الحكام أو المنظرين.. وأما أن يكون هرباً من التفكير، وإيثاراً للأنانيـة. وأن يجعل الفرد من إلهه هواه. ولا يحتمل الأمر ثالثاً مع هذين .

قد يقال إن تشديد الإسلام وتأكيده لمعنى "عبودية" الإنسان يصدم مشاعر الكثيرين. ونحن نفهم هذا، ولكنه لا ينفى أن ذلك ليس إلا مرضاً من أمراض الحساسية الإنسانية، التي يجب علـى الإنسان أن يتخلص منها لا أن يستسلم لها. والإسلام لا ينافق، وقد كان مـن الضـروري لـه أن يصارح الإنسان بهذه الحقيقة حتى لا يطغى الإنسان، والإنسان عندما يطغى يصبح مسخاً مقيتـاً. بل تصبح الوحوش ملائكة بالنسبة لما يقترفه من جرائم وموبقات ..

وعبودية الإنسان هي ثمرة خالق ا للإنسان وهي نتيجة منطقيـة لا خفـاء فيهـا ولا حساسية. وإذا وضع الإنسان في تقديره عظمة ا ، وأنه ليس فحسب خالقه وجابله في أحسن تقويم، وواهبه العقل والحواس والحياة، بل هو أيضاً الخالق لهذه الأكوان التي لا حصر لها والتي لا تعد الكرة الأرضية إلا ذرة في صحراء.. ولا تعد ملايين السنين إلا ثانية من أعمار. وأنه (أي الإنسان) من ناحية أخرى يضعف أمام الجمال ويؤخذ بالعبقرية ويسترق للإحسـان والمعـروف. ويبذل حياته في سبيل قيم ومبادئ... فإنه سيفخر بعبوديتـه رب الأكـوان.. وخـالق الحيـاة والموت. وأصل المثل العليا ..

وأي واحد يستشعر أنفة من ذلك يكون كالذي قتل شخصاً لأنه نظر – مجرد نظر – إلـى امرأته بدعوى الشرف المزعوم فحكم عليه بالأشغال الشاقة، وفي الليمان اصبح "عشيقة" لمجـرم

---

١. أنظر كتاب مارجريت كول " بياتريس وب " ص ٢٣٠ .

عات !! ومن يأنف من عبودية الله يصبح عبداً لنجمة سـينمائية، أو حـاكم بـأمره أو داعيـة. ﴿أتشترون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾ .

وبعد. فقد شاءت رحمة الله أن تجعل من الإنسان خليفة له على الأرض، وزودته بـالعلم الذي تميز به على الملائكة نفسها.. وأمر الله الملائكة أن تسجد له.. فأي كرم ومنة أعظم من هذا ...

وهكذا يتضح لنا أن تصوير الإسلام لله أفضل بمراحل من أي تصوير آخر، فهو أفضـل من التصوير الفلسفي الذي يجعله قيمة مجردة، لأن الإسلام يضيف الحياة والقـدرة والإرادة إلـى هذه القيم. وهو أفضل من صور التجسيم الوثني التي تقضي على التجريد الواجب. وهو أفضـل مما صورته الكتب المحرفة لبني إسرائيل أو البناء اللاهوتي المعقد الذي جاءت به المسيحية ..

ب - الإيمان بالرسالات السماوية ..

وتتضمن العقيدة الإسلامية الإيمان بالرسالات السماوية والرسل الذين حملوا هذه الرسالات وأن الإسلام هو آخر الرسالات السماوية ونبي الإسلام وخاتم الرسل والأنبياء ..

وهذا الاعتقاد هو ما توجبه الآيات ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا. وما أنزل إلى إبـراهيم وإسماعيل وأسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون مـن ربهـم لا نفرق بين أحد منهم، ونحن مسلمون﴾ البقرة ١٣٦، وهي الآية التي كـررت بألفاظهـا تقريبـاً أو بمعانيها في عدد كبير من السور .

وهناك آيات لا يقتصر التوجيه فيها على الإيمان بهؤلاء الرسـل، والرسـالات بالـذات، ولكنها تشير إلى رسل آخـرين لم يذكروا على وجه التعيين ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك، مـنهم من قصصنا عليك، ومنهم من لم نقصص عليك﴾ . ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾. ﴿ولقد بعثنـا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله﴾ وهناك آيات أخرى تنص على أن الله سبحانه وتعالى لا يسائل حتى يرسل رسولا مثل ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾. ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتـى يبعث في أمها رسولا﴾ .

ومحصلة هذا أننا لا نعلم على وجه القطع عدد وشخصية الرسل، وإن كنا نسـلم بـالنص القرآني أن كل أمة كان لها رسولها الذي يدعوها، بلغتها، إلى عبادة ا .

ويدخل بالطبع في الإيمان بالرسالات الإيمان بأن الإسلام هو آخر الرسالات السـماوية.. وأن نبيه هو خاتم الأنبياء، فلا رسالة ولا أنبياء بعد الإسلام، وهو ما تنص عليه الآية ﴿مـا كـان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول ا وخاتم النبيين﴾ ومع أن النص هنا منصـب علـى أن الرسول هو خاتم النبيين، فإن هذا ينسحب على الرسالة أيضاً، إذ لا رسالة دون رسول، وقد أثبت الواقع صدق ذلك، فلم تظهر بعد الإسلام رسالة ولم يقم بعد محمد ﷺ نبي .

والإسلام يجعل للأنبياء مهمة مزدوجة، وينظر إليهم كنوع من أجهزة الاستقبال والإرسال الآدمية. فهم يتلقون الوحي السماوي وهم يذيعون الرسالة التي يتلقونها دون زيادة أو نقصان وإن كان لهم حق التفسير والإيضاح في حدود ترسم لهم .

ونحن لا نعرف حتى الآن، ولن نعرف، حقيقة الوحي الإلهي فاللفظـة نفسـها "تـوحي" بالخفاء وتشير إلى الإيماء النفسي وبغير واسطة مرئية. وقد استخدم القرآن اللفظة في مـدلولات متعددة مثل ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً﴾. ﴿فقضاهن سبع سـموات فـي يومين وأوحى في كل سماء أمرها﴾ ﴿يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها﴾. ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ﴾. ﴿وإذ أوحينا إلى أمك ما يوحي﴾. وكذلك جاءت آيات أخرى مثل ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾. ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكـون من المرسلين﴾ .

وهناك أحاديث عديدة تصف الحالة البدنية والنفسية للنبي عندما كان يأتيه الوحي. وهناك أحاديث أخرى تنص على أن جبريل كان يتقمص شخصية "دحيه الكلبي" وكأنما أريد بمثـل هـذه الأحاديث أن تدحض شبهة عدم إعجاز أو قدسية أو صفة تنزيل الوحي المحمدي .

والإيمان بالوحي جزء من الإيمان بذلك العالم المجهول للدنيا الذي يطلق عليه القرآن عالم الغيب، ولا تفضل معرفتنا به معرفة أحد أجدادنا الغابرين بالراديو أو اللاسلكي .

وأسلوب القرآن في الإشارة إلى الأنبياء هو ذكر صفاتهم أكثر من أسمائهم. فـلا يـذكر القرآن أسم النبى إلا عندما يتطلب السياق التمييز بينهم، أو أن يكون الحديث متعلقاً بأمر خـاص برسول بعينه، أما في غير ذلك فالإشارة دائماً بصفة (رسول ا - رسله -أنبيائه) ولم يذكر سيدنا

محمد باسمه في القرآن إلا خمس مرات على تعدد الإشارات إليه، **كما تلازم دائما أدوات الحصر صفة النبي فتحصرها في تبليغ الرسالة "إن أنت إلا نذير" .**

وهذه الإشارات كلها تدل دلالة قاطعة على الصفة الموضوعية للرسول، وأنه ليس البطل صانع التاريخ، ولكنه الموصل للإرادة الإلهية، وليس له دور إلا التبليغ، وما يلحق بهذا التبليغ من إيضاح أو تفسير. وهذه الصفة بدورها لم تأت بسبب ربانية الرسالة فحسب، ولكن أيضاً لأن الوسيلة هي (الوحى) فالأنبياء لا يبدعون رسالتهم، ولا يضعونها من تلقاء أنفسهم أو طبقاً لفلسفتهم، بل ولا يعلمونها قبل أن توحى إليهم. ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ ..

ومن الواضح أن هذا يقدم تفسيراً لمهمة (البطل)، فليس هو الذي يبدع التاريخ، كما يذهب إلى ذلك أصحاب مدرسة البطولة والفرد، وليس هو الذي يستبطن العلاقات الإنتاجية كما تذهب إلى ذلك الماركسية. والقرآن ينص على أن ا (يصطفى) أفراداً ليبلغون رسالته. وهؤلاء الأفراد،وهم الأنبياء، يكون دورهم التاريخى هو التبليغ بكل ما في هذه المهمة من أمانة، ودقة، وإيضاح أو تفسير وما يتطلبه ذلك من عمل وذكاء وتضحية. وهذا هو دور النبي، أما محور التاريخ فهو مشيئة ا . وهو التعبير الإسلامي للتطور طبقاً للسنن التى وضعها ا ، والتى تضع في اعتبارها كل العوامل المؤثرة .

ويفترض الإسلام في الأنبياء أن يكونوا مثلا عليا حية يهتدى بأخلاقها وسلوكها، وهو ما يتسق مع بقية جوانب (النبى) لأنه لما كان ا يصطفيه ويكل إليه مهمة تبليغ رسالاته، فلابد وأن يكون أكمل الناس .

والنظرة العابرة في هذه المهمة المزدوجة توضح جلياً الفرق الأساسي ما بين النبى والبطل، فالأنبياء أفراد اختارهم ا عز وجل من صفوة الخلق ليحملوا رسالة مقدسة إلى البشرية وأضفى عليهم عصمته في تبليغهم الرسالة، في حين يحمل الأبطال أوزار الأوضاع والوراثة والبيئة، ومن هنا فقد تكون مذاهبهم واتجاهاتهم سليمة، ولكن سلوكهم وتصرفاتهم تعكس الضعف البشرى ..

وعندما نطلب إلى الناس الإيمان بأن محمداً رسول موحى إليه من ا ، فـنحن نطلـب إليهم أهون اختيارين وأكثرهما سلامة .

ذلك أننا إذا وضعنا مآثر أكبر الزعماء والقادة الذين أنجبتهم البشرية، أمام مآثر محمـد.. لبدت الأولى ضئيلة، قميئة معيبة أمام الثانية ..

فقد كان محمد نبياً جاء بدين ناجح وسياسياً بنى دولة ورثـت الإمبراطوريـات القديمـة، ومشرعاً وضع قانوناً عبقرياً يشمل العقوبة الجنائية والعلاقات الشخصية والأوضاع الاقتصـادية والاجتماعية، وبليغاً جاء بجوامع الكلم واعتبرت أحاديثه حجة في اللغة. وقائداً عسكرياً مظفـراً. ومثلا أعلى في الخلق الكريم، ونتيجة لهذا فإن اسمه لا يزال منذ ألف وأربعمائة عام حتـى الآن يتردد خمس مرات كل يوم في أربعة أركان العالم كلما أذن لصلاة. ولا يزال مثواه الأخير علمـاً منوراً يهرع إليه المؤمنون من أقطار الإسلام يحدوهم الشوق لكى يقفوا بين يديه في تلك البقعـة التى قال عنها إنها "روضة من رياض الجنة " .

من ذا يسامى هذه المآثر، أو يظفر بمثل هذه المنزلة ..

لقد كان الاسكندر فاتحاً عسكرياً مظفراً، وتتلمذ على يد "أعجوبة البشرية" أرسطو، ولكنه لم يكن المشرع ولم يكن النبى، وما أكثر ما غلبته انفعالاته وورطته في منكرات وآثام .

وكان "أعجوبة البشرية" ارسطو فريداً في الفلسفة والمنطق والآداب والعلوم، ولكنه لم يكن رجل الدولة ولا رجل الدين.. ولا القائد العسكرى .

وكان قيصر رجل دولة، ورجل سياسة وآداب وقائداً منتصراً ولكنه لم يكن رجل الدين أو المشرع وفوق هذا فقد كان رجل كل امرأة.. وامرأة كل رجل ..

وكان نابليون رجل دولة، ورجل سياسة وقائداً عسكرياً، ومشرعاً ولكنه لم يكن صـاحب الدين أو رجل اللغة والأدب أو المثل الأعلى في الأخلاق .

وكان كل من "شكسبير" و "جوته" علماً من أعلام الأدب والشعر والمسرح ولكنهمـا كانـا أصفاراً في السياسة والتشريع والقيادة العسكرية أو الرسالة الدينية .

إن الشخصية الباهرة غير العادية للرسول العربي قد فرضت نفسها من الوهلة الأولى مع تلك الجملة التي ما كانت تشبيهات شكسبير وتهاويله لتصل إلى ما هو أبعد منها ".. لو وضـعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته.. " .

فهل كان يمكن للإسكندر، أرقى ثمرة للثقافة الهيلينية وتلميذ أرسطو أن يقول شيء كهـذا ..

أي قائد، أو ملك أو إمبراطور أو نبي في العالم يستطيع أن يقول كما قـال محمـد عـن أصحابه: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم.. اهتديتم" ..

وأصحاب أي قائد ظفروا من الأجيال بتوقير وتبجيل كما ظفر الصحابة ؟ إن مجد محمـد الذي أنعكس عليهم امتد إلى أصحابهم فقيل لهم "التابعون" وإلى أصـحاب هـؤلاء فقيـل "تـابعو التابعين" ..

أي جنود معركة نالوا مثل "الوسام" الذي منحه محمد لجند بدر ".. إنه شهد بـدراً، ومـا يدريك لعل ا اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم" ..

أي بشر يصل به الاعتزاز وتملك قياد البلاغة وقوة التصوير إلى أن يقول لأصحابه "لـو كتم في أهلكم كما تكونون معي لصافحتكم الملائكة !! "

وكل هـذا ...

يصدر من عربي أمي لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم علي يد فيلسوف ..

فإذا لم يكن هذا وحياً، وإذا لم يكن محمد نبياً، فإن البديل الوحيد هو أن يكون محمد – كمـا كان يري اليونان والرومان – إلها، أو نصف إله .

وقد قرأنا فقرة تنفح صدقاً وإخلاصاً أملاها إيمان كاتب مسلم هندي هو السيد أبي الحسن علي الندوى وجعل لها عنواناً، محمد رسول ا **روح العالم العربي** قال فيها :

".. إن سيدنا رسول ا ﷺ هو الذي أبرز العالم العربي للوجود، فقد كـان هـذا العـالم وحدات مفككة .

كانت سوريا مستعمرة رومية، والعراق مطية لشهوات الدولة الكيانية، وكانت مصر قـد اتخذها الرومان ناقة حلوباً ركوباً.

فما لبث هذا العالم المفكك المنحل المضطهد إن هبت عليه نفحة من نفحات الإسلام الـذي جاء به محمد ﷺ فأحياه بإذن ا وجعل له نوراً يمشي به في الناس وعلمـه الكتـاب والحكمـة وزكـــاه

فكان هذا العالم بعد البعثة المحمدية سفير الإسلام. ورسول الأمن والسلام ورائد العلم والحكمـة، ومشعل الثقافة والحضارة، هنالك كانت الشام وكان العراق وكانت مصر وكان العالم العربي الذي نتحدث عنه، فلولا محمد ﷺ ولولا رسالته، ولولا ملته، لما كانت سوريا. ولما كان العـراق. ولا كانت مصر. ولا كان العالم العربي. فمن استغنى عن دين الإسلام من شـعوب العـالم العربـي وحكوماته، وولى وجهه شطر الغرب أو أيام العرب الأولى أو استلهم قوانين حياته أو سياسته من شرائع الغرب ودساتيره أو أسس حياته على العنصرية أو العروبة التي لا شأن لها بالإسلام فليرد على محمد بـن عبد ا نعمته، ويرجع إلى جاهليته الأولى. حيث الحكم الروماني والإيرانـي.. وحيث الاستعباد والاستبداد.. فإن هذا التاريخ المجيد. وهذه الحضارة الزاهيـة.. وهـذه الـدول العربية ليست إلا حسنه من حسنات محمد عليه الصلاة والسلام.[1]

ج – الإيمان باليوم الآخر ..

والعقيدة الإسلامية تتضمن كذلك الإيمان باليوم الآخر .

واليوم الآخر هنا رمز لفصيلة من الحقائق يطلق عليها في الإسلام السـمعيات أو "عـالم الغيب" وتضم فيما تضمه الوحي وكما ذكرنا. فإن الإيمان با والوحي يمكن أن يدخل فـي بـاب الإيمان بالغيب، وما دمنا قد سلمنا بأسلوب الاعتقاد إلى جانب أسلوب الحواس أو النظـر العقلـي فإن الإيمان باليوم الآخر لا يعد شذوذاً، وإن كان الإيمان به قد يكون أقسى وأصعب من الإيمـان با

ذلك لأن اليوم الآخر يتضمن الحياة بعد الموت والنشور من القبور.. وهو أمـر يصـعب على الذي يحكم حواسه أو النظر العقلي المزعوم التسليم به .

وحجة القرآن في إثبات البعث هو أن ا هو الذي أنشأ النشأة الأولى. وأنه من ثم قـادر على أن يحيى الموتى، ويبعث العظام وهى رميم ..

استدلال منطقي تماماً، ولكن المنطق هنا لا يجدي، ما لم يكن إلى جانبه الإيمان ..

وقد يهون من الاستحالة الظاهرة لعملية البعث عدة أمور **فأولاً:** نحن لا نعلم إلا القليل من أسرار الحياة والموت والبعث والنشور. ولو قال أحد لأجدادنا الغابرين إنه سيمكن رؤية صـورة أحد الموتى يتحدث، ويعمل فيرى أداءه ~~ويسمع صوته بعد موته بسنو~~

1. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٧٩ – ٢٨٠ بتصرف

بهذه الرؤيا والسماع دائماً لنعتوه بالجنون. ومع هذا فنحن نستطيع أن نحتفظ بشـريط سـينمائي لإحدى الشخصيات فنسمع صوته ونراه يقوم بحركاته وأعماله بعد وفاته بوقت طويل، وفي الوقت نفسه فنحن لا نعلم على وجه الدقة البعث والنشور وكيفيته، وما في القرآن من إشارات متعددة هي إشارات عامة تعني وتركز على صلب الموضوع وجوهره وليس على كيفيته أو تفاصيله. فهنـاك بعث بعد الموت وحساب دقيق ومكافأة للمحسن وعقاب للمسيء أما تفاصيل ذلـك فلـم يتناولهـا القرآن جرياً على أسلوبه في إهمال التفاصيل والتركيز على الجوهر وقد تناولت أحاديث عديـدة تفاصيل البعث والنشور، ولكن من المعروف أن هذا الموضوع هو المجـال المحبـب والمختـار للوضاعين الآثمين، وللقصاصين الغافلين .

وثانياً: أن الفكرة في اليوم الآخر هي إحقاق الحق، فقد تسمح الأوضاع بظهـور الطغـاة والظلمة والفسقة الذين يرتكبون المظالم وينتهكون المحارم ويعذبون الناس ثم يموتـون فـي أوج سلطانهم دون أن تنالهم يد العدالة أو يدفعوا ثمن شرورهم، وقد يضطر ضحاياهم، إن جهـلاً وإن قهراً، لتشييعهم في مواكب مهيبة ودفنهم في مقابر وهياكل يقف الحرس عليها ليل نهار.. فإذا جاز أن يمضي هذا لهدم كل معنى من معاني سيادة الحق. فاليوم الآخر هو ميعاد هؤلاء مـع العدالـة الإلهية فسيادة الحق والعدالة تفرض إيجاد هذا اليوم كجزء لا يتجزأ من معنـى، ومبنـى الحـق والعدالة، وانعدامه يفترض ضمناً تهدم هذا المعنى والمبنى أو انعدام وجودهما .

وثالثاً : إن عقيدة اليوم الآخر جزء حيوي وثمين من الأصل الـذي أوجـد الضـمير. فإيمان الناس با ، وبأنه يكافئ المحسن ويعاقب المسيء في يوم لا يعلو فيه قوة السلاح و"القنبلـة الذرية" و لا يهيمن رأس المال والمعونات، ولا تملـك وسـائل الإعـلام المضـللة أن تمـارس تزييفها... يولد الضمير .

وبوجود الضمير الإسلامي يوجد الالتزام الاجتماعي وتسيير أمور المجتمع سـيراً هينـاً ويسوده الفهم، والتعاون، والعدل، والمعايير الموضوعية التي يحترمها الجميع .

ويلحظ هنا أن الإيمان باليوم الآخر يقوم بمهمة وقائية وجزائية في آن واحد ويؤدي عمله في الحاضر الماثل والمستقبل الآتي، فالإيمان به يقي المجتمع من أن ينساق أفـراده فـي تيـار الانحراف ويعصمهم من الزلل ثم يوجب توقيع الجزاء على المسيء.. في ذلك اليوم المشـهود.. الذي يدفع فيه ثمن ما قدمت يداه...

***

ويلحق باليوم الآخر. والحساب والعقاب.. الجنة والنار... ولا ريب في الجنة والنار، إذ هما أداتي الثواب والعقاب، وإليهما ينتهي المطاف والمآل ..

وتثير الجنة والنار في أذهان بعض المسلمين العصريين قضيتين **الأولى** هل التعبيرات التي جاءت عن الجنة والنار في القرآن تعبيرات حرفية أو أنها مجازية ؟ في نظرنا أن الأمر أساساً أمر فهم أمين، وقلب سليم وإخلاص في الاستدلال. فمن اطمئن صدره إلى أن هذه التعبيرات مجازية، شأنها في ذلك شأن تعبيرات "يد ا " و "العرش" وما إلى ذلك فله هذا المخرج والتأويل ما اطمئن قلبه إليه. ومن لم يطمئن إلى هذا فعليه أن يتمسك بما فهم من منطوق الآيات .

والقضية الثانية هي عدالة الجنة والنار، وبالذات العقاب بالنار. وفي هذا الصدد نعرض حقيقتين لا جدال فيهما: **الأولي** أن ا كتب علي نفسه الرحمة، وأنه هو الرحمن الرحيم، وأن الأديان إنما تنزلت والرسل إنما بعثوا رحمة بالناس**، وأن** رحمة الأم بطفلها جزء ضئيل (١%) من رحمة ا ، وأن خزانة رحمة ا لا تنفد وليس للذين أسرفوا علي أنفسهم أن يقنطوا من رحمة ا . فلا احتمال بعد هذا لما نتصوره ظلما.. تعالي ا عن ذلك .

والثاني أن إيمان المجتمع الإسلامي بعقوبة النار في الآخرة جعلها محرمة في الدنيا، فلم تعرف هذه العقوبة بين العقوبات لآي سبب كان. فوجوها في الآخرة كان رحمة في الدنيا. ونقيض هذا أن الكنيسة المسيحية لما كانت "تمقت الدماء" ecclisia abhorreta sangune فإن العقوبة المقررة أصبحت هي الحريق وسيق المخالفون إلي المحرقة زمراً فيما سمي "مواكب الإيمان !". auto da fe [1]

وهذه " المعلومة " الجديدة التي تكشف عن رحمة كبري تمخضت من عذاب غليظ ليست إلا مثالا واحداً لعشرات أو مئات "المفارقات" التي توضح خطأ الاستعلاء العلمي المزعوم، أو الأخذ بالظنة والبادرة الأولي، أو ما يبدو وكأنه منطقي معقول .

***

وتحتل العقيدة منزلة الشرف بين مكونات الإسلام.. لأن الإيمان با تعالي: المثل الأعلى والحقيقة الكلية.. وخالق الحياة والموت ~~ومالك الملك، ونور السموات~~ والأرض يكسب الفرد المؤمن قوة عظمي، واعتزازاً لا يماثله أي اعتزاز آخر، و بهذه القوة تنمو شخصية الفرد المسلم وتصمد أمام كل المصاعب. والمحن والأعباء .

١. وقد استمرت هذه "المواكب" فى أسبانيا من سنة ١٤٨١ حتى سنة ١٨١٣ .

بل إن مجرد فكرة الله بالصورة الإسلامية. أي باعتباره مالك الملك.. ورازق الخلق مكن العلماء من أن يجابهوا الملوك.. وجعل العامل الفقير الجاهل يصيح عندما يرفض الدنية "رزقي على الله!" ولو كان رزقه بيد الدولة الشمولية.. أو الإقطاعي المستحكم أو الرأسمالي المستغل لما استطاع إلا الرضوخ والاستسلام .

والعقيدة بطبيعتها فردية، والوسيلة الوحيدة إليها هي الدعوة. ومن أجل هذا كان الأنبياء دعاة يدعون بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا يمكن تصور وسيلة أخري غير ذلك، كأمر عسكري.. أو قانون أو إرهاب أو اصطناع.. فان هذا يوجد المنتفع أو الانتهازي أو الوصولي ولكنه لا يوجد المؤمن .

وشأن العقيدة في هذا العبادة والخلق ، فكلها تنمو من الفرد.. لا تفرض علي الفرد. والأمر هنا يختلف عن "الشريعة" التي تكون نقطة الانطلاق منها "المجتمع" ويجوز لها أن تلوذ بوازع السلطان وبالقوة الجبرية .

الفصل الخامس

والإسلام عبادة ...

والإسلام كذلك عبادة ..

والعبادة هي أولى ثمار العقيدة وأكثرها مباشرة، ولهذا أصبحت وسيلة الحاسة الدينية لممارسة وظيفتها ووجودها وطريقة الإنسان للتقرب إلى الله ، ومناجاته وتهذيب ضميره من النوازع الجامحة ..



وليس المجال مجال دراسة موضوعية للعبادة، فهذا ما يتطلب كتاباً خاصاً، ولكن لابد من الإشارة إلى بعض القضايا الأساسية التي تلتبس بالعبادة عامة، والعبادة الإسلامية خاصة مثل قضية الإلزام والشكلية في العبادة وقضية القيمة التهذيبية لها

فمع أنه يفترض أن تنبع العبادة أصلاً من نفس الفرد كثمرة للعقيدة وتعبير عنها أو تجسيم لها، إلا أن الأديان جميعاً لم تترك العبادة للفرد تماماً .

فقد تدخلت عوامل عديدة اقتضت أن تحدد الأديان صور وطرق العبادة. حتى لا يضل البعض، أو يلوذ بصور سقيمة، أو يستسلم للسلبية. ولأن الأديان عقائد جماهيرية، كما هي إيمان فردي. وهذه الحقيقة تستلزم نوعاً من الوحدة، ومن الإلزام أيضاً، لأن تجربة البشرية أوضحت أن الناس أكسل من أن يلزموا أنفسهم القيام أو بمعنى أدق – المداومة على القيام – بأمور هي في صميم مصلحتهم، رغم علمهم بها ما لم تفرض عليهم هذه الأمور، أما إذا تركت للاختيار الفردي. فإنها لا تمارس، أو تنتظم ممارستها أو قد يغلب عليها أمور أخرى أكثر إغراء وأقل مصلحة. فكل الناس مثلا تعلم أهمية غسل الأسنان قبل النوم الخ.. أو القيام بتمرينات رياضية معدودة كل صباح.. أو الامتناع عن السرف في الطعام أو التدخين الخ.. ومع هذا فما لم تفرض هذه بإحدى طرق الإلزام، فإن عدداً محدوداً فحسب هو الذي يلتزم بها .

فلم تكن العبادات – كممارسات جماهيرية – لتظهر أو ليكفل لها الاستمرار **إلا باختيار أفضل الصور المؤدية لها وفرضها.** وهذه الضرورة الناشئة عن قصور الجماهير والجماعات وغلبة قانون الجهد الأقل عليها آونة والنوازغ المغرية آونة أخري، يجب أن تكون ماثلة في أذهاننا عندما يطرأ لنا دائما هذا السؤال "لماذا لاتترك العبادة للأفراد ، وإحساسهم ومشاعرهم حتى لو أدي هذا لأن يعبد كل واحد ا بطريقته الخاصة". فلم يكن هناك بديل، وكان حتما علي الأديان أن تجابه التحدي في هذه القضية، وتحدد موقفها من تلك المشكلة التي يثيرها الاختلاف ما بين الفرد والجماعة، الشكل والمضمون، الإلزام والتطوع وأن تعين الأوضاع المحددة، والملازمة دون أن يستغرق ذلك مبادءة الفرد، أو جوهر الشعور وإنما هو ينظمها ويبلورها . ولو لم تعمل الأديان ذلك لفقدت صفتها الجماهيرية، ولأصبح مكانها ما بين الفلسفة والهواية، ولانحصرت في مجموعة ضئيلة جداً، إذا استطاعت مقاومة عوامل الفناء .

ومع أننا علي استعداد للتسليم بأن الشكلية والإلزام يمكن أن يمسا أصالة العبادة التي يفترض أن تنبثق من أعماق الفرد إلا أن من الإنصاف أن نقول **أولا :** إن هذا هو حكم

الضرورات الاجتماعيـة التـي بنـي عليهـا المجتمـع الإنسـاني، ولـم يكـن هنـاك بـديل **ثانياً :** أن مقياس المساس المظنون بالأصالة هو علي أقله بالنسبة للجماهير العريضـة التـي لا ترى في هذا الفرض والشرع قيداً علي مبادئها أو حريتها، بل تري فيهما عونا لها وإراحـة مـن عناء الإبداع والاختيار، والفلاسفة والمفكرون وحدهم هم الذين قد يجدون في أنفسهم شيئاً من هذا الفرض والرسم، ولكن هؤلاء يفترض أن يلموا بقوانين المجتمع وطبائع الأشياء، وأن يكونوا أول من يعذر، بل وأول من يخضع ويلتزم، وهو الموقف الذي جعل عمر بن الخطاب يقول وهو يقبل الحجر الأسود "وا إني لأعلم أنك حجر. لا تنفع ولا تضر ولولا أني رأيت رسول ا يقبلك ما قبلتك" وهو أيضاً الموقف الذي جعل الصوفيين الثقات يلتزمون بآداب الشريعة ويؤدون شـعائرها الظاهرة عن صدق وإخلاص وإيمان حتى لو كانت طريقتهم الخاصة تقوم علـي صـلة روحيـة ووجد عاطفي، لأنهم يعلمون أن هذه الشعائر هي التي تمسكهم بالإسلام وتحفظهم من أن يضـلوا في محيطات الجموح العاطفي. وعندما كانت تغلبهم عواطفهم فيما سمي "بالشطحات فإنهم كـانوا يعتذرون عنها، ولا يأخذونها الأخذ الحرفى. **ثالثاً :** أن باب العبادة التلقائية الاختيارية الفردية غير مغلق فهو مفتوح لمن يشاء، إلي جانب العبادات المقدرة .

وتفاوت التوفيق الذي عالجت به الأديان هذه القضية، ونحن نعلم بـالطبع تلـك الثـورة العارمة التي ثارها المسيح علي "الفريسيين" الذين جعلوا اليهودية طقوساً جامدة قاسية، وجعلوا من أنفسهم سدنتها الذين يحتكرونها ويفيدون من إعناتها للناس آونة ومن التحايل علي هـذا الإعنـات آونة أخري. ومع ذلك، ومع أن المسيحية اصطنعت المحبة شعاراً والقلب مـلاذاً، فـإن وجـود الكنيسة والأكليروس والسلطات الواسعة التي منحتها نفسها أوجدت ما يشبه الوصاية علي ممارسة العبادة .

وقد جمع الإسلام ما بين الإلزام والتحديد من ناحية، وإتاحة قدر كبير من الحرية والسـعة من ناحية أخري، وسنعرض لذلك فيما بعد، وقد يصورها أن القرآن – وهـو الأصـل الأصـيل للإسلام – لا يضع إلا الخطوط العريضة الأساسية، ولا يتعرض أبداً للتفاصيل حتى في أهم النقاط مثل عدد مرات الصلاة في اليوم وعدد الركعات في كل صلاة الخ.. كما قـد يصـور الموقـف التعبير القرآني "شعائر ا " فالعبادات في الإسلام "شعائر" تستمد من الشعور ولكنها تـدور حـول محور الهي ..

***

ومما يمت إلي هذه القضية بصلة قضية القيمة التهذيبية والنفعية للعبـادة. فقـد رأينـا أن العبادة بعد وضع صور محددة لها وفرض درجات من الإلزام بها لم تعد فحسب تفريغـاً لشـحنة العاطفة الدينية التي تجيش بها النفس، أو تعبيراً عن الإيمان والولاء والمحبـة والتفـاني. وإنمـا أصبحت كذلك وسيلة تربوية لتنمية الضمير وتهذيب النفس والسمو بالأحاسيس. لأن ا غني عن العالمين وقد وضع العبادات لتهذيب الناس وتزكيتهم وتطهيرهم ﴿إن الصلاة تنهي عـن الفحشـاء والمنكر﴾. ﴿لن ينال ا لحومها ولا دمائها ولكن يناله التقوى منكم﴾ ولكن يبدو أن عنصر الشكلية من ناحية وضحالة فهم الناس من ناحية أخري.. إلى جانب التيار الدافق لمادية العصـر الـذي يستغرق الفرد ويسترقه وقتاً وفكراً جعل القيمة التهذيبية للعبادة محدودة . بـل وأعطاهـا طـابع "التشيؤ" أي فصل المضمون عن الشكل بحيث لا تفهم الحكمة من العبادة، أو يؤبه لها، وينصـب الاهتمام على الشكل الذي يجمد ويتقولب ويصبح غاية في ذاته، بدلاً من أن يكون وسيلة لغايـة. وبذلك حصرت العبادة في دائرة ضيقة مغلقة لا تنتقل منها لتؤثر في بقية جنبات النفس أو مجالات المجتمع. وهذا "التشيؤ" يكاد يكون مرضاً متوطناً في العبادات ولا يمكن علاجه إلا بحسـن فهـم الإسلام ومعرفة روحه وحكمته، وجانب الشكلية هو على أقله في الإسلام. ويجب أن نضـع فـي اعتبارنا أن العبادات بأسرها ليست في ترتيبنا إلا جزءاً من مكونات الإسلام وأنه حتى لو لم تحقق الهدف التهذيبي بالكامل، فإن جزء من هذا الهدف المأمول سيتحقق، وللإسلام وسـائله الأخـرى النابعة من بقية المكونات التي سيرد الحديث عنها في الفقرات التي تلي فقرة " العبادة " ..

***

والعبادات الإسلامية معروفة.. وليس من شأن هذا الكتاب الحديث عنهـا بالتفصـيل، ولا المجال يتسع لذلك .

قصارى ما سنورده إشارات سريعة إلى بعض ما يعرض للنفس عنها ..

والصلاة أولى العبادات الإسلامية وأهمها وتتضح أهميتها من الحث المتكرر والمتـوالي عليها والأمر بها في القرآن والحديث.

والصلاة لغة الدعاء ولكنها اصطلاحاً تلك "الشعائر" التي تـؤدى بطريقـة معينـة حـدد خطوطها العريضة القرآن الكريم، وتولت تفاصيلها السنة النبوية، فعلية وقوليه .



وهكذا نجد أنه حتى في الصلاة، أي الدعاء والصلة بالله والابتهال إليه فإن ضرورة تحديد ذلك ورسمه قد فرضت نفسها .

فالصلوات المفروضة في اليوم خمسة. وقد بدأ هذا العدد قليلاً للأولين، وهو يبدو كثيراً للآخرين. والحق أنه وسط مع ميل للتحرز والتحوط وإشعار الفرد الخاص للصلاة، فلو كانت ثلاثة لماعت وسط التقسيم المبتذل لصباح، وعصر، ومساء، ولكن تحديدها بخمسة أصبح إضافة تنبيهيه أو إشعاريه، وكان يمكن لهذه الإضافة أن توجد وعياً خاصاً بالتوقيت والضبط لو أحسن المسلمون فهم صلاتهم .

ويماثل هذا الاتجاه في التحديد، الاتجاه في الأداء . فالصلاة الإسلامية تضم – فيما تضمه – قراءة القرآن، وركوع وسجود يتضمنها دعاء، وجلسة "تشهد".. وهذه كلها مرسومة ومحددة، أريد بها إشعار الجسم والحوا س والفكر الخشوع والإحساس بمعني الصلاة .

في مقابل هذا التحديد هناك بعد عن الشكلية، فالصلاة تجوز في الفلاة، وعلى الأرض، وفي قعر البيت، وبأي ملابس. وحتى وقتها فإنه على تحديده مفتوح حتى بداية وقت الصلاة التالية.. وفي الوقت الذي تقرأ فيه الفاتحة في كل الصلوات، فهناك حرية في قراءة أي نص قرآني بعدها، وبهذا تجمع الصلاة بين الإلزام والتحديد من ناحية والحرية والمبادءة من ناحية أخرى

ومن المسلم به أن معظم الناس يصلون صلاة آلية تهاجمهم فيها المشاغل والعواطف، وقد تكون بعض هذه الهواجس من أسوأ الشهوات التي يقذفها الشيطان في الذهن .

ومن المسلم به أيضاً أن هناك من يدع عمله ويصلي الظهر "حاضراً " حرصاً على وقته ثم يخرج من عمله قبل وقت العمل أو يعرف عنه أنه لا يضبط ميعاداً أبداً.. وأن هناك من يضيف على الصلاة المكتوبة سنناً، شفعاً ووتراً، ثم يبخس الناس أشياءهم، ويضيع عليهم وقتهم. مما ينم على أن هؤلاء لم يفهموا الحكمة في الصلاة.. وأن الصلاة بالنسبة لهم أخذت طابع "التشيؤ" المصمت .

وقد يكون من الخير لهؤلاء أن يقتصروا على الصلاة المفروضة ولا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن يؤدوا أعمالهم خاصة إذا كانت تتعلق بخدمة الناس ويرجئوا الصلاة إلى آخر الوقت

أو أن يفيدوا من مبدأ الضرورة، أو حتى من الرخصة التي أجازها النبي ﷺ حتى لا يحرج أحد من أمته على حد قول ابن عباس، وأعني بها الجمع بين الصلاتين في وقت واحد .

وقد جاءت هذه الرخصة رواية عن ابن عباس في مسند الإمام أحمد ومسلم والبخاري ، وتأولها الفقهاء على أنها "الجمع الصوري" أي أن يصلي صلاة في آخر وقتها، والثانية في أول وقتها ولكن سياق الحديث لا يسمح بهذا. ورأى أحد الفقهاء أن "الفقهاء جميعاً على ترك العمل بهذا، إما لأنه منسوخ أو لأنه فعله في حال ضرورة إما لمطر أو شغل [1] .

وقد قرأنا مقالاً قيماً عن هذا الموضوع لإمام من أئمة الشيعة في مجلة "رسالة الإسلام" لم يكتف فيه بتعزيز دليل الجمع من واقع الحديث، بل أراد الاستدلال عليه بالقرآن أيضاً فقال "والدليل على جواز الجمع مطلقاً موجود والحمد سنة صحيحة صريحة كما سمعت، بل كتاباً محكماً مبيناً، ألا تصغون لأتلو عليكم من محكماته ما يتجلى به أن أوقات الصلوات المفروضة ثلاثة فقط، وقت لفريضتي الظهر والعصر مشتركاً بينهما، ووقت لفريضتي المغرب والعشاء على الاشتراك بينهما أيضاً وثالث لفريضة الصبح خاصة، فاستمعوا له وأنصتوا ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل، وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ [2].

ومع إننا نوافق فضيلة الكاتب علي ما جاء في مقاله إثباتاً للأحاديث ومعظمها عن بن عباس، إن كان أحدهما جاء مسنداً إلي معاذ بن جبل والآخر مأثوراً عن عبد ا بن عمر، وأننا أيضاً نوافقه علي أن الورع الذي حمل العلماء علي عدم الاعتداد بهذه الأحاديث لكي لا يجرئوا العامة علي الجمع، أدي بكثير من أهل الأشغال إلي ترك الصلاة كما شاهدناه عيانا بخلاف الجمع فإنه اقرب إلي المحافظة علي أدائها وبهذا يكون الأحوط للفقهاء أن يفتوا العامة بالجمع.. وأن "ييسروا ولا يعسروا"، نقول مع أننا نوافق علي كل هذا، فإن شيئاً يحوك في الصدر من الاستهلال بهذا الأمر.. والمفروض عندما يسمح به أن يكون ذلك على أساس دفع الحرج، وليس القاعدة ..

أما استدلال فضيلة الكاتب بالآية وفهمه لها فهو أمر خطير، ونعتقد أنه حمل الآية أكثر مما تحتمل لأن النص على أوقات معينة لا يعني ضرورة الحصر في الأوقات، فضلاً عما هو معروف من أن السنة مفصلة القرآن .

---

١. تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢٦١

٢. رسالة الإسلام السنة السابعة العدد الثاني رمضان ١٣٧٤ إبريل ١٩٥٥ " الجمع بين الصلاتين لحضرة صاحب السماحة للعلامة السيد شرف الدين الموسيري – لبنان ص ١٤٨ .

وكذلك قرأنا دفاع الفقهاء عن تأويل هذه الأحاديث بما يتفق مع ما ذهب إليه الجمهور من عدم جواز الجمع بغير عذر فوجدنا فيه تكلفاً كبيراً .

وما تطمئن إليه النفس أنه رخصة ألهمها ا تعالى نبيه لما س
المشاغل وتحكم الأعمال في الناس .

ومع هذا فلا ريب في جدوى الصلاة حتى للذين لا يصـلون بالخشـوع أو بالانتظـام أو الحضور الذهني، أو للذين يصلون كنوع من الالتزام أو التقليد ...

فالصلاة بالنسبة لهم حبل يربطهم بالإسلام، وفي بعض الحالات يكون هذا الحبل طـويلاً بحيث يشرد صاحبه أو يضل، ولكن هذا كله محدود، ويمكن أن يعود. وتكون الصلاة هنا بمثابـة طوق نجاة لا يفيد صاحبه في مجالات عديدة من مجالات الحياة والمجتمع، ولكنـه يقيـه أسـوأ الاحتمالات: الغرق .

وفي الوقت نفسه هناك مزايا أخرى عديدة تبعية ...

فستلزمه الصلاة الركوع والسجود وإذا أداهما الأداء السليم (فركوع النبي ﷺ مثلاً يفترض الاستواء المستقيم للظهر حتى لو سكب عليه ماء لما انسكب). فسيكتسب صحة وسيمارس رياضة

وستفرض عليه الصلاة أن يتوضأ، فيغسل يديه وقدميه، وا أعلم ما يكون عليه مسـتوى النظافة لو لم يفرض الإسلام الوضوء. فإذا أراد أن يفلت من تجديد الوضوء، فعليه أن يتحكم فـي حواسه فيكسب في جميع الحالات، إما النظافة وإما التحكم في الحواس .

وعندما يلزم أحد الناس نفسه الانتظام في الصلاة فسيقوي ذلك من إرادتـه.. وإذا فـرط فسيشعر بوخز الضمير والتقصير ويدفعه هذا وذاك إلي التعويض والتفكير..

وستودي مقاومته للهواجس الشريرة والأفكار المثيرة التي تهاجمـه خـلال الصـلاة، أو الشرود إلي التمرين علي تركيز الذهن..

وأخيراً فستضطره الصلاة إلى حفظ بعض الآيات إلى جانب الفاتحة، وهي ثروة حقيقيـة وبركة ...

وأغلب الظن أن يفتح ا عليه في النهاية فتتجلى له الصلاة على حقيقتها بكـل جمالهـا وروائها وأسرارها ...

وبعد الصلاة تأتي الزكاة ...

وهكذا وضعها القرآن، وهكذا يكون علينا أن نضمها .

والزكاة لغة النماء والطهارة والبركة والمديح وقد استعمل القرآن اللفظة ومشتقاتها في كل هذه المعاني، ولكن الزكاة اصطلاحاً هي ذلك الفرض العيني أو المالي الذي يكون على كـل ذي مال تقديمه لينفق في مصارف معينة .

وهذه التسمية – الزكاة – هامة لأنها توضح الفرق الأساسي بينها وبين "الضـريبة" التـي يمكن أن تفرضها الدولة. **فالأولى:** الزكاة، لها جانبها التعبدي. وأداؤها يطهر النفس، وهو يـؤتى طواعية. بل ويصطحب بالسرور والراحة. فالمؤمن حقاً يخرج خير ماله للزكاة .

وفي بعض الحالات يشير القرآن للزكاة باعتبارها "صدقة" ﴿خذ مـن أمـوالهم صـدقة تطهرهم وتزكيهم﴾ ويوجد هذا لبساً للذي يعتقد أنها "حق معلوم" كما جاء في آيات أخرى. والحـق أنه ليس هناك خلاف فهي حق معلوم بالنسبة للمحتاج إليها يكون على المؤمنين أو على الحكومـة الإسلامية كفالتها له. وهي صدقة بالنسبة لدافعها. ومن ثم فإنها تجمع الحسنيين للطرفين ..

وقد يعترض البعض على أساس أن أبا بكر حارب العرب لمنعهم الزكاة فلو كانت "صدقة" لما جاز حربهم عليها. والرد على هنا أن منع العرب للزكاة أخذ شكل الرفض الجماعي وطـابع التمرد، وفي الوقت نفسه فإن كونها صدقة لا يقتضي ضرورة تضمن عنصر الحرية في دفعهـا. وليس في الأصل اللغوي لكلمة "صدقة" ما يوحي التبرع والتطوع على العكس إنها من مشـتقات التصديق والاتباع فإذا لم يدفعها بهذا المعنى طولب بها وعوقب عليها، ومع هذا فهناك مثل "ثعلبه" المعروف الذي بخل بالزكاة ثم ندم وجاء بها إلى النبى ﷺ ولكن النبي ﷺ رفضها ثم جاء بها إلـى أبي بكر الصديق فرفضها، وإلى عمر فرفضها وإلى عثمان فرفضها حتى مات في خلافة عثمـان ويقول المفسرون إنه هو الذي نزلت فيه الآية الرهيبة ﴿ومنهم من عاهد ا لئن آتانا مـن فضـله لنصدقن ولنكو نن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضـون، فـأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا ا ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ .

ونحن نميل لأن نعتبر الزكاة عبادة وشريعة معاً. بمعنى أن لها جانبها العبادى الإيمـانى، وجانبها الاجتماعي الإلزامي ..

وهناك فرق أساسي آخر بين الزكاة وبين الضرائب الأخرى قلما ينتبه إليه الكتاب. ذلـك أن الزكاة مفروضة على "رأس المال" أما معظم الضرائب فإنها تكون على "الدخل" .

ومصارف الزكاة توضح مدى اتساع وكرم دائرة التكامل الاقتصادي في الإسلام ...

***

والصيام من العبادات المأثورة في كل الأديان وإن اختلفت صورها وأوقاتها .

وقد اختار الإسلام أن يبدأ الصيام بالفجر وأن ينتهي بغروب الشمس، لأن الفجر والغروب أوضح الظواهر الجوية ويمكن أن يظهر لكل الناس في كل مكان .

كما اختار أيضاً شهراً متواصلاً، لأن المواصلة يمكن أن تعمق المعنى المطلوب ..

وجعل الصيام الامتناع عن الشراب والطعام ليكون الإحساس بالصيام فعالاً، ولـو أبـاح شرب الماء مثلاً لفقد الصيام فعاليته..عذابه وفرحته ...

واشترط لكمال الصوم البعد عن الرفث والفسوق والسباب والامتناع عن الشهوات ...

وهذه كلها هي أفضل الاختيارات. فإذا صام المسلم هذا الصيام فلا ريـب فـي أن هـذا تدريب صارم ودقيق للنفس وللجسم، وقد يتضمن مشقة وإعناتاً للكثيرين، ولكـن الإسـلام يريـد للمؤمنين به أن تغلب عزائمهم شهواتهم وأن تخضع مقتضيات حيـاتهم اليوميـة لإرادتهـم فـلا تسترقهم أو تتحكم فيهم العادات..

ولكن الصائم إن امتنع عن الشراب أو الطعام.. ونال مـن الأعـراض أو تـورط فـي الشهوات.. أو قصر بحجة الصيام فليس له من صومه إلا الجوع والعطش .

ولو صام الصيام المشروع ثم عوض في الفطار ما فاته طول النهار بحيث يفوق ما يأكله في الإفطار ما يأكله في وجبات ثلاث أو وجبتين. فإنه يسيء إلي حكمة الصيام، بل ويـذهب بهـا ويجعل من شهر الصيام شهر الطعام !

وما يفعله المصريون في رمضان أكبر دليل علي الجهالة المستحكمة التي تصل إلى قلب الأوضاع .

فمعظم الصائمين يعاقبون إخوانهم بهذا الصيام.. ويجنون علي عملهم بحجته .

فإذا جاء الإفطار ملئوا البطون كل علي مكانته وقدرته ..

وقبل أن ينتهي الإفطار يبدأ زحف الإذاعة وهجوم التلفزيون بكل ما يتصور من نكـات، وفوازير، وأحاجي، وأغانى، وأفلام وتمثيليات.. ومجون أعد خاصة لهذا الشهر الكريم !

***

ومن العبادات الإسلامية الحج، لمن استطاع إليه سبيلا .

والحج عبادة يغلب عليها الطابع الجماعي والطقوسى، ومع ذلك فإن رؤية تلـك الأمـاكن والبقاع الحافلة بالذكريات ومواقع الكفاح الأول.. وذكري إبراهيم وإسـماعيل.. وهمـا يرفعـان القواعد من البيت. وتمثل هاجر – الأم الملتاعة تبحث عن الماء لأبنها العطشان حتى تجد "زمزم". واجتماع المسلمين كافة علي عرفة يلبسون لبساً واحداً بسيطاً يمحو الفوارق.. وزيـارة الروضـة النبوية والوقوف ببابها حيث ثوى الرسول العظيم وصاحباه رمز الصحبة والوفـاء والاتبـاع.. وهذه الذكريات كلها تستغرق الشكليات التي تحفل بها مناسك الحج .

الفصل السادس

والإسـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـلام خلـ ـق . . .

عندما تذكر الأديان يتراءى بحكم تداعي المعاني العقيدة والعبادة ...

وهي ظاهرة لا تجوز على الإسلام إذا جازت على باقي، الديانات لأن مـن المقـرر أن الإسلام بحكم نشأته وطبيعته، وما أراده ا له نهج فـي الحيـاة يظلـل مجالاتهـا الاجتماعيـة والاقتصادية والسياسية ويحدد للمؤمنين به المواقف التي يقفونها والخلائق التي يتخلقون بها فـي هذه المجالات كلها ..

وقد تنبه بعض المفكرين المسلمين إلى هذه الحقيقة ، ولكن تعبيرهم عنها لم يأت فيما نرى بالطريقة المثلى ..

فقد أحسن بعض الغيورين الثقات عندما سكوا تعبير "الإسلام عقيدة وشريعة" حرصاً على الجانب التشريعي ودفعاً لما يتبادر إلى أذهان المحدثين من أن الإسلام صلاة وصوم ...

ومع هذا فإن التعبير لم يكن كافياً، ولئن أحسن في ناحية فيخشى أن يفهـم منـه معنـى الحصر، ويكون ذلك إخلالاً بأحد مكونات الكبرى للإسلام. وهو الخلق .

ولا يصلح عذراً أن يقال إن العقيدة تتضمن الخلق فلو أحسن الفرد الإيمان بها لحسن خلقه وصلح سلوكه لأنه إذا جاز هذا المنطق بالنسبة للخلق، فإنه يجوز أيضاً بالنسـبة للشـريعة ، ولا يكون هناك مبرر لخصها بالنص .

وهناك بعد، نظر في صحة الاستدلال أو جوازه لما أوردناه في مقدمة هذا الباب من تعقيد وتركيب النفس الإنسانية وتعدد ملكاتها، وانفصال بعضها عن بعض .

ولعل هذا أحد الأسرار في أن القرآن الكريم والسنة النبوية لم يدمجا الخلق فـي العقيـدة بحيث يمحى وجوده الخاص، وتحدث على كل منهما بما يؤكد ذاتيته، فذكرا الأخلاق بأعيانها من كرم أو حلم أو حياء أو عدل أو إنفاق.. إلى جانب الإيمان با ورسله واليوم الآخر، فلـو كـان الإيمان وحده يكفي لما كان هناك مبرر للنص على الأخلاق، أو التغليظ فيها أو توالي إردافها بعد الإيمان والصلاة، فقلما تذكر الصلاة إلا وتتلوها الزكاة وقلما يذكر الذين آمنوا إلا ويعقبها وعملوا الصالحات وهي ظاهرة فاشية في القرآن لدرجة تلفت النظر .

وعلى هذا فإذا أريد ذكر المكونات الأساسية للإسلام. فيجب النص على الخلق بين هـذه المكونات، وأي إجزاء لإحدى المكونات عن الأخرى يكون خلطاً. وأي اسـتبعاد لواحـدة يكـون إخلالاً، ويذهب إذا جاز حساب الأرقام بثلث أو ربع الإسلام .

ومعنى هذا أنه إذا آمن أحد الناس با ورسله وملائكته واليـوم الآخـر وأدى العبـادات كاملة، ولكنه مع كل هذا كان ظالماً، أو كاذباً أو منافقاً، فإن إسلامه لا يكون كـاملاً، وكمـا أنـه سيثاب على أدائه للعبادة، فإنه سيعاقب على سوء خلقه .

وقد رسم القرآن ما يمكن أن يكون لوحات وصفية لما يجب أن يكون عليه خلق المسلمين، وما يفترض أن يكون عليه مجتمعهم بحيث يلم الناس بالمضمون العام، كما أنه في حالات أخرى يخص بالذكر خلقاً معيناً أو يحض على سلوك بالذات .

ومن اللوحات الوصفية مثلاً ...

* ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكـر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون ا ورسوله، أولئك سيرحمهم ا إن ا عزيز حكيم﴾ .

* ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن با واليـوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمسـاكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكـاة والموفـون بعهـدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئـك هـم المتقون﴾ .

* ﴿يا أيها الذين أمنوا كونوا قوامين شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا ا إن ا خبير بما تعملون ﴾ .

* ﴿يا أيها الذين أمنوا اتقوا ا حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبـل ا جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة ا عليكم إذ كنتم أعداء، فألف بين قلوبكم فأصـبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين ا لكم آياته لعلكم تهتدون، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهـون عـن المنكـر وأولئك هم المفلحون، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات فأولئك لهم عذاب عظيم﴾ .

* ﴿الـ ـذين ينفقـ ـون فـ ـي السـ ـراء والضـ ـراء والكـ ـاظمين الغـ ـيظ والعافين عن الناس وا يحب المحسنين. والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا ا فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا ا ، ولم يصروا علي ما فعلوا وهم يعلمون﴾ .

* ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسـاناً ولا تقتلـوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها ومـا بطـن ولا تقتلوا النفس التي حرم اله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسـط لا نكلـف نفسـاً إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا، ولو كان ذا قربي وبعهد ا أوفوا ذلكـم وصـاكم بـه لعلكـم

تذكرون. وأن هذا صراطا مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سـبيله ذلكـم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ .

* ﴿يا أيها الذين أمنوا لا تخونوا ا والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون. واعلمـوا إنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن ا عنده أجر عظيم ﴾ .

* ﴿الذين يوفون بعهد ا ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر ا به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافـون سوء الحساب، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾ .

* ﴿إن ا يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغـي يعظكم لعلكم تذكرون﴾ .

* ﴿قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغـو معرضـون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا علي أزواجهم أو مـا ملكـت أيمانهم فانهم غير ملومين، فمن ابتغي وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم علي صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون ﴾.

* ﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر علي ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور. ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن ا لا يحب كـل مختال فخور. واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ .

* ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسي أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساء مـن نساء عسي أن يكن خيراً منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابذوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظـن إن بعض الظن إثم، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا ا إن ا تواب رحيم. يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكـر وأنثـى وجعلنا كم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند ا أتقاكم إن ا عليم خبير﴾ .

وهناك أحاديث عديدة تؤيد هذه المعاني وتفصلها مثل :

* " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يثلمه ومن كان في حاجة أخيه، كان ا في حاجتـه، ومن فرج عن مسلم كربة فرج ا عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسـلماً ستره ا يوم القيامة " .(البخاري، ومسلم وأبو داود)

* " الحياء من البر" . (البخاري ومسلم)

* " البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهـت أن يطلـع عليـه النـاس" . (مسلم والترمزى)

* ".. وإن صاحب حسن الخلـق ليبلـغ بـه درجـة صـاحب الصـوم والصـلاة " . (البزار)

* " إن ا ليبلــغ العبــد بحســن خلقــه درجــة الصــوم والصــلاة" (الطبرانى في الأوسط)

* " .. وا لا يؤمن، وا لا يؤمن، وا لا يؤمن . قيل يا رسول ا لقد خاب وخسر من هذا ؟ قال من لا يأمن جاره بوائقه قالوا وما بوائقه قال شره " . (البخاري)

* " ا تقو الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم " . (مسلم)

* " اتق ا حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها وخـالق النـاس بخلـق حسـن " . (الترمزى)

* " الكلمة الطيبة صدقة " . (البخاري ومسلم)

* " الإيمان بضع وستون – أو وسبعون – شعبة، أدناهـا إماطـة الأذى مـن الطريـق، وأرفعها لا إله إلا ا " .

(البخاري ومسلم وأبو داود)

* " آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهـد غـدر، وإن صـلى وصام وزعم أنه مسلم " .

(مسلم)

* ".. أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصوم وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هـذا وسفك دماء هذا وضرب هذا فيعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسـناته ، فـإن فنـت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار " .

(مسلم والترمذى وغيرهما)

* " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر مـا نهـي ا عنـه . (البخاري ومسلم)

* " إن المسلم المسدد ليدرك درجه الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبته .

* " قال رجل يا رسول ا إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها قال هي في النار قال يا رسول ا فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها تصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذي جيرانها قال هي في الجنة " .

(احمد والبزار وابن حبان والحاكم في المستدرك)

* "كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هـو لـك مصـدق وأنـت لـه بـه كـاذب " . (أبو داود)

فهذه الأحاديث، ومن قبلها الآيات صريحة في أن المسلمين مطالبون بخلق معين يثـابون عليه، ومنهيون عن خلق معين يجازون عليه وأن هذا يعد من صميم الإيمان بحيث يعد الإخـلال به إخلالا بالإيمان نفسه .

ونري هذه الخلال في كثير من الحالات مقدمة في الآيات والأحاديث علي العبادة الخالصة من صلاة أو صيام. وتعطينا هذه الخلال في مجموعها صورة للخلق الإسلامى الذي يقـوم علـي استشعار الحاسة الإسلامية في السلوك والتصرفات، وتكون أركانه العدل والرفق والقصـد فـي الأمور وأداء الأمانة والوفاء بالعهود والحقوق والتجاوب مع المؤمنين بتقديم النصح أو بذل العون أو التعاون علي البر والتقوى والبعد عن الشح والأثرة والغلو والاستعلاء .

خذ مثلاً لذلك آداب الاستئذان فقد نزلت فيها عدة آيات مفصلة من سورة النور، بعضـها يتناول ما يمكن أن نسميه "الاستئذان بصفة عامة" والبعض الآخـر يتنـاول أوقـات "الاسـتئذان" وجاءت أحاديث... تكمل ما أجملته الآيات .

والآيات هي :

(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلهـا ذلكـم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وأن قيل لكم أرجعوا فأرجعوا هو أزكى لكم وا بما تعملون عليم، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم وا يعلم ما تبدون وما تكتمون) .

فأوضحت هذه الآيات **أولاً:** أن من الضروري الاستئذان والسلام قبل الدخول **ثانياً:** إذا لم يوجد أحد فيجب عدم الدخول . **ثالثاً:** إذا رفض الدخول فعلى المستأذن أن لا يجد غضاضة مـن ذلك، ويرجع فقد يكون هناك من الأسباب – التي لا يعلمها – ما يتطلب ذلك **رابعاً:** لا تسري هـذه الأحكام على المحال العامة .

وقد وضحت الأحاديث طريقة الاستئذان والسلام وهو أن يقول.. السلام عليكم أأدخـل ؟ " فإن سئل من ؟ فلا يرد أنا.. ولكن يقول فلان .

والآيات الأخرى (**الخاصة بأوقات الاستئذان**) **.**

)يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكـم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين ا لكم الآيـات وا عليم حكيم، وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين ا لكم آياته وا عليم حكيم) .

وقد أوضحت هذه الآيات أن أطفال الأسرة وشبابها وخدمها أن يستأذنوا في ثلاث أوقـات معينة هي الصباح الباكر، والظهيرة، والليل، وهي أوقات خلع الملابس والنهوض مـن النـوم أو الاستلقاء، وفي غير هذه الفترات لا يكون هناك حاجة للاستئذان لأنهم من أهل البيـت أو الخـدم ويغلب أن يكون الاستئذان لدخول حجرة النوم، أو المخادع .

وأوضحت الأحاديث الحكمة في هذا حتى لو كان المستأذن ابنا علي أمـه أو أخـاً علـي أخته، بل أوضحت أحاديث أخري أن من الخير أن لا يطرق الرجل أهله ليلا إذا عاد من سفر .

ولما كان القرآن قـد رأى في هذه الأوقات أوقات التبذل و"العورات"، فـيفهم مـن هـذا كراهة الزيارة فيها إلا لضرورة قاهرة

وتتضمن مسانيد الحديث كتباً كاملة عن كل باب من أبواب الأتيكيت مثل كتاب السـلام، وكتاب المجالس، وكتاب الزينة، وكتاب اللباس وكتاب الوليمة الخ.. فضلا عن أدق ما يكون بـين الرجل وزوجته من آداب جنسية ..

وقد جعل التطور صور بعض هذه الآداب متخلفة أو منقرضة "مثـل الأكـل بالأصـابع" وليس علينا حرج في هذا، لأن المقصود بها التأدب، وليس التعبـد ، ولكـن لا يـزال لمعظمهـا سلامته وامتيازه الذي أكده العصر. وإنه لمن أهم الواجبات أن تصنف هذه الآداب فـي فصـول وأبواب بلغة سهلة وأن تدرس في المدارس حتى يلم النشء بآداب دينه، وقواعد السلوك والتهذيب فيلازمها أو يكون لديه على الأقل معيار يكبح جماحه إن لم يستطع أن يطبقه .

الفصل السابع

والإسلام شريعة ...

ظهر الإسلام في مجتمع قبلي لم توجد فيه قوانين مقررة ولا شرائع مؤصلة فكان عليه أن يضع هذه القوانين والشرائع، ولا منافاة بين هذه الملابسة الخاصة وأن الإسـلام بطبيعتـه ديـن شامل، لأن ا تعالى يهيئ الأسباب لتتحقق النتائج، فقدر أن يظهر هذا الدين وسط هذا المجتمـع القبلي ليجد فرصته في التشريع والتقنين ولتظهر آثار وحكمة هذا التشريع .

وعندما تذكر الشريعة تذكر الحدود والقصاص ولكن الحقيقة أن الشريعة الإسلامية تشمل إلى جانب التشريع الجنائي التشريع المدني والتشريع الاقتصـادي والنظـام السياسـي وتشـريع الأحوال الشخصية، - كما يقولون – وإنما جاء التركيز على الحدود والقصاص لما خصت به من شهرة ولما يتمتع به دائماً القانون الجنائي من منزلة. وسنجري على هذا السنن أي سنركز الإشارة على التشريع الجنائي مع إشارة مقتضبة إلى التشريعات الأخرى .

وتستلهم الشريعة الإسلامية أصولها وقواعدها من أصول وقواعد الإسلام. والإسلام دعوة موضوعية مبدئية، أي أن لها مبادئ موضوعية يجب أن يلتزم بها المجتمع، لأن في هذا الالتـزام

صلاحه، إذ لما كانت هذه المبادئ منزلة من ا ، فإنها أفضل المبادئ وأصدقها موضوعية. ولكن لما كان هذا الاستدلال لا يجد تجاوباً مع الذين لا يؤمنون با ، أو يرون فيها افتراضاً أو تلاعبـاً بالألفاظ، أو كانوا من الذين تشمئز قلوبهم لذكر ا على حد تعبير القرآن، فنحن نقول لهم كائناً ما كان إيمانهم، إن الفكرة الأساسية في الأديان هي وضع مبادئ لهـا مـن الأصـالة، والصـدق، والموضوعية ما يهدي الناس دون أن تتأثر باختلاف أجناس هؤلاء الناس أو أوقاتهم أو أمـاكنهم. والأديان في هذا تختلف عن الدعوات الديمقراطية التي تستهدف إرضاء أغلبية الناس أو الدعوات الفردية التي تزعم للفرد غائية يكون على المجتمع أن يكيف نفسه طبقاً لها

ولا يعني هذا أن الإسلام لا يتقبل فكرة المرونة أو التطور أو الذاتية أو تغير الأوضـاع، إنه يقبلها، بل لقد ظهر من العلماء المتقدمين – ومن الحنابلة بالذات – من قـدم المصـلحة علـى النص وهو نجم الدين الطوفى الحنبلي المتوفى سنة ٧١٦هـ . وقد بنى رأيه في تفسـيره لأحـد الأحاديث أن الشارع استهدف المصلحة فالمصلحة هي الهدف، فإذا وجد نص يعارض المصـلحة فيجب تقديم المصلحة "بطريق التخصيص والبيان لها لا بطريق الأفتيات عليها والتعطيل لها " .

وعلى ما يبدو من سلامة وبساطة هذه المقولة فإنها حافلة بالثغرات، **فأولا**، ليس صـحيحاً أن المصلحة، بالمعنى المفهوم، هي الهدف الأساسي للأديان. لأن الفهم الإنساني للمصلحة يمتزج بمعنى النفع. وهناك فرق بين الرسالة الدينية التي تستهدف الهداية وبين مذهب المنفعة المعـروف والذي يعد "بنثام" أبرز المدافعين عنه في العصر الحديث والذي يستهدف المصلحة فالمصلحة دائماً تتجرد من القيم والموضوعية، وليست مأساة التقدم الأوروبي سوى تجرده من القيم كمـا أشـرنا، **وثانياً** أننا حتى لو سلمنا بأن المصلحة هي هدف الشارع، فليس من الأمور المسلم بها أن النـاس سواء كانوا جماهير أو قيادات، يتوصلون دائماً إلى هذه المصلحة.. وتاريخ التقدم البشري يؤكـد ذلك فقد حوربت كل خطا التقدم، وكل الأفكار الرائدة، بل وحتى المكتشفات والمخترعات التـي لا يتصور أن تكون فائدتها محل شك ! فتحديد المصلحة ليس من البساطة أو السـهولة التـي تبـدو للوهلة الأولى. ولو سألنا مصلحة من ؟ لما كان هناك رد صريح شامل فمصـلحة العمـال غيـر مصلحة الرأسماليين. ومصلحة المحكومين غير مصلحة الحاكمين الخ... وأغلب الظن أن تُضـلل الجماهير المستغلة المحكومة بحيث لا تتعرف على المصلحة، أو تموه عليها بينما تسـتأثر القلـة الحاكمة لتحقيق مزيد من "المصلحة" لها أو على الأقل تحافظ علـى الوضـع القـائم. **وثالثـاً** أن المجتمع يحتاج إلى قدر من الثبات والحفاظ وأن يسير تقدمه بنسبه متزنة، الأمر الـذى يتطلـب

معايير موضوعية وضوابط تحكم هذا التقدم، وكل ضوابط لا تكون موضوعية لا تصـلح، وكـل موضوعية لا تستلهم من ا لا تكون مطلقة أو ملزمة .

والملحوظ أن التقدم المتزن يقاوم، في حين يسمح بنوع من التهور والاندفاع والنـزوات. وآية ذلك أن التقدم المادي الكبير لم يصاحبه تقدم نفسي أو خلقي أو اجتماعي يماثلـه أو يقاربـه. **ورابعاً** أن هناك ضرورة لتوفر صفتي القداسة والموضوعية لعدد من المبادئ الكلية العظمى التي يقوم عليها المجتمع، ولا يجوز أن تتزعزع لأنها بمثابة "البوصلة" التي تشير إبرتها إلى الاتجـاه الواحد، وبفضل هذا الثبات والاتجاه الواحد تعرف بقية الاتجاهات... وتقاس خطا التقـدم ومـدي حقيقة المصلحة... وقد ناصرنا مقولة ابن الطوفي واستشهادنا بها في كتابنا " ديمقراطيـة جديـدة الذي صدر ١٩٤٦، وكنا في ميعه الشباب، وكان لدينا من الأوضاع وقتئذ ما يبرر ذلك، ولكننـا الآن بعد مضي نصف قرن، نري الأمر في ضوء مختلف. وهذه الواقعة في حد ذاتهـا، توضـح زئبقية رؤية المصلحة واختلافها، وكيف أن العوامل تؤثر علي الإنسان فـي تحريـه المصـلحة. وشأننا في هذا شأن المجتهدين الذين كانوا يختلفون فيما بينهم بل كان الواحد منهم يري الرأي ثـم يرجع عنه بعد مدة عندما يظهر له دليل جديد .

لهذا كله، فنحن نري أن الإسلام لا يرفض فكرة المرونة والذاتيـة والمصـلحة وتغيـر الأوضاع ولكنه يضعها في التفاصيل. أما في المبادئ الأساسية أو الكليات فيفترض التزام الناس بها لان هذا الالتزام هو هداية البشرية، وهو ما يميز الأديان عن المذاهب والـدعوات الأخـرى، فالأديان تهدي الإنسان في حين أن الدعوات الأخرى حتى وان استهدفت علاج المشاكل ، فأنها قد لا تهدي – ضرورة – الإنسان .

وبذلك يجمع الإسلام بين الثبات والوحدة والموضوعية في الكليات والمرونة والذاتية فـي التفاصيل .

***

والطابع الأساسى للإسلام هو – كما ذكرنا "العدل" الذي يتجلي في كافـة مـايقرره مـن أوضاع سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو حتى عبادية، وهو المبدأ الأساسى الـذي استلهمته الشريعة الإسلامية، ويمكن تقصي آثاره عليها .

فالإسلام يفترض بادئ ذي بدء قيام مجتمع عادل يكف الفرد السوي عن الانحراف.. فإذا لم يوجد هذا المجتمع العادل، أو حاق به ما يؤثر علي "عدالة" الأوضاع، فإن أثار ذلك تـنعكس علي العقوبة كما حدث في عدة حالات عارضة ارتقت إلي مستوي الإيقاف المؤقـت لحـد مـن الحدود المقدسة حتى ينتهي هذا العارض .

ولكن الإسلام – مع هذا – يتقبل فكرة أن يحدث الانحراف رغم سلامة الأوضاع، فلـيس هناك مبرر لكي نفترض أن سلامة الأوضاع الاجتماعية ستستأصل استئصالا كاملاً الانحراف أو الجريمة، وان كان ذلك سيجعلها محدودة جدا، لان التعقيد النفسي والفردي يكـون بمنـأى عـن الأوضاع الاجتماعية، فضلا عن أن افتراض سلامة الأوضاع هو دائما فرض نسبي. ومن أجـل ذلك سيكون هناك انحراف أو جريمة حتى في أفضل المجتمعات. وعندما يحدث هذا فان الإسـلام يري فيه اعتداء علي المجتمع، ويعني بحماية المجتمع أمام مزيد من الجرائم، وتحدد العقوبة علي هذا الأساس، أى على أساس الردع ..

وعندما لم يفهم الشاعر هذه النقطة تساءل .

يد بخمس مئين فضة فديت   ما بالها قطعت في ربع دينار

فالسارق هنا لم يعاقب علي سرقة دينار أو ربع دينار ولكنـه عوقـب علـي السـرقة، ولانتهاكه حرمة مجتمع كفل له وسائل الرعاية، والجريمة هنا اجتماعية، والعقوبة أيضاً اجتماعية، ومن هنا كانت قسوتها وهذا هو ما توصل إليه تقريباً الشاعر الذي فهم حكمه الشريعة عنـدما رد علي التساؤل السابق:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها   ذل الخيانة، فافهم حكمة الباري

وما نريد أن نصل إليه أن فكرة الردع الاجتماعي بما تتضمنه من قسوة لا تخـرج فـي التحليل الأخير عن دائرة العدل الذي التزم به الإسلام ولكن المناط في تحديد العـدل كـان هنـا المجتمع لا الفرد.. المعني الذي يتضمنه الجرم. وليس الجرم في حد ذاته ...

ويقسم الفقهاء العقوبات في الشريعة الإسلامى **إلي ثلاثة أقسام: الأول الحـدود والثـاني القصاص والثالث التعزيـر.** وسنقصر حديثنا علي القسمين الأول والثاني لأنهما المستمدان رأسـا من صريح القرآن والسنة. أما التعزير الذي يترك أمره عادة لولي الأمر ويتعرض لعدد كبير من الاجتهادات والخلافات فلن نعرض له، أولا لان المجال لا يتسع له وثانيا لأننا نعتقد انـه، وهـو

محل الاجتهاد – تأثر إلى حد كبير بعوامل ذاتية حتى اصبح في بعض الحالات " أحكاما سلطانية " أكثر مما هو تعزير إسلامى، وهذا أمر حاله يطول ..

وقد عين القرآن الكريم والسنة الفعلية جرائم الحدود وهي السرقة، والزنا والقذف، وشرب الخمر، وقطع الطريق. ويضيف الفقهاء الردة والبغي ولنا فيهما وجه نظـر سنعرضـها عنـدما الإشارة إليهما.

ولما كانت السرقة هى أكثر ما يتعرض له المجتمع، وكان الأغراء عليها من أكبر دواعي الفساد في المجتمع سواء جاء من إشاعة القلق والخوف أو تيسير الكسب السهل الحرام فقد شـدد الإسلام في عقوبة هذه الجريمة، غلقاً لبابها وحسماً لشأفتها وحماية المجتمع منها. وإبعـاداً لمـن يوسوس له الشيطان.. أو يداعبه الأغراء. وسنري أن العقوبة علي قسوتها، وعلي أننا لا نتقبلهـا إلا علي أساس الضرورة المؤلمة، هي بعد.. أفضل حل يكمن أن يتخذ إزاء هذه الجريمة ..

ومع أن عقوبة الزنا اقسي واشد من عقوبة السرقة إلا أن طبيعة الجريمة واشتراط أدلـة تكاد تكون مستحيلة الإثبات، وهي رؤية أربعة أفراد لإتمام الفعل الجنسـي بالكامـل، فـإن رأي الأربعة أن الفعل لم يصل إلى تمامه، فان الحد يسقط، وإذا رأى ثلاثة الفعل الجنسي حتى نهايتـه ولم ير ذلك الرابع تماما، بطلت الشهادة وعوقب الثلاثة بعقوبة القذف ! نقول أن اشـتراط هـذه الأدلة كاد أن يجعل هذه العقوبة معطلة، إلا إذا أصر مقترفها علي الاعتراف ، وتمسك به رغبـة في أن يكفر بدمه وان يظفر بمغفرة تتناسب مع هذه التضحية.. ولو قسمت علي سـبعين لكفـتهم علي حد تعبير الرسول، أو ليضمن بها الجنة في رواية أخري .

أما القذف – والمقصود به القذف بالزنا – فعقوبته ثمانون جلدة ومن المهم هنا أن نوضح أن جلدة النبي) تختلف عن جلدة الجيش البريطاني ذات "الثمانية ذيول" كما يقولون، ففي بعـض الحالات لم تكن هناك "جلدة " إطلاقاً، ففي نيل الأوطار للشوكاني مثلا جاء أن النبي) جلد شارب الخمر بجريدتين نحو أربعين. فكلمة "جلد" هنا لا تختلف عن كلمة "ضرب" .

ولم ينزل في شارب الخمر حد - ولكن عندما نزل النهي كان شـارب الخمـر يضـرب "علقه" فالروايات مجمعة علي أن شارب الخمر عندما كان يؤتي به إلى النبي) كان يأمر بضربه حيثما اتفق . وقيل إنه ضرب أربعين نعلا، وجعلها عمر أربعين جلدة.. ثم ثمانين لما فسق الناس. وعلي هذا فتعيين العقوبة بأنها الجلد ثمانين أو أربعين لا يعد حداً كحد السرقة، أو الزنا، ويمكـن النظر إليه فى ضوء جديد .

والحد الخامس هو حد الحرابة أو قطع الطريق والأصل فيه قوله تعالي)إنما جزاء الـذين يحاربون ا ورسوله ويسعون في الإسلام فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) ، وقد اتفق الفقهاء علي أن المراد بها قطع الطريق بالسلاح واختلفوا في العقوبة لاختلافهم في فهم "**أو**" وهل هي للتخيير أو للجمع أو للترتيب علي حسب الجنايـات، كما اختلفوا في الصلب وهل يكون قبل القتل أو بعده. ورأينا الخـاص أن "**أو**" للتخييـر وليسـت للجمع أو الترتيب إذ لو أريد الجمع أو الترتيب لنص علي ذلك بأداة الجمع التي لا تقبل تـأويلا، ولكن الحكمة هنا هي تقديم عدد من البدائل حسب اختلاف الحالات. كما أن المقصود بالصلب فيما نري هو الردع، وإنه إنما يكون بعد القتل لا قبله ولان فكرة القتل بهذه الطريقة لأنه نـوع مـن المثله، ومن القتل صبرا، وهو منهي عنه (حتى بالنسبة للحيوان) وبعيد كل البعـد عـن منطـق الإسلام، والصلب هنا كقول الآية)وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) أسلوب من أساليب الردع ..

ولآية الحرابة استدراك هو قول ا تعالي..).. إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا علـيهم، فاعلموا أن ا غفور رحيم) وقد جاء هذا الاستدراك بعد آية العقوبة مباشرة ومضافاً إليها وهـو يسقط الحد عند التوبة قبل إلقاء القبض عليهم أو التمكن منهم .

ويضيف الفقهاء إلي هذه الحدود حداً يقضي بالموت علي من يرتد عن الإسلام وحجـتهم في ذلك الآية) .. ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمـالهم فـي الـدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) البقرة ٢١٨ وحديث "مـن بـدل دينـه فـاقتلوه "وحديث "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بـالنفس والتـارك لدينـه المفارق للجماعة "

أما الآية فليس فيها ما يومئ اقل إيماءة إلى عقوبة دنيوية ولو أراد ا عقوبة لنص عليها. كما نص علي حـد السرقة والزنا أو القصاص.. ولا يجوز في دين ا أن يستحل القتل وإهـدار الدم بمثل هذا الاستدلال السقيم، فضلا عن أن هذا الاستدلال يخالف عشرات الآيات التـي تـنص علي حرية العقيدة وحرية الإرادة مثل)وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن. ومن شاء فليكفـر).)لا إكراه في الدين).)ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره النـاس حتـى يكونوا مؤمنين).)ليس عليك هداهم ولكن ا يهدي من يشاء).)إنما أنت مـذكر لسـت علـيهم بمسيطر) .

وقد ذكر القرآن الارتداد في أكثر من آية، ولم يشر في آية واحدة إلى عقوبة، بل أحالهـا جميعاً إلى ا .. مثل قوله تعالي:)أن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد مـا تبـين لهـم الهـدي الشيطان سول لهم وأملي لهم).)يا أيها الذين أمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت ا بقـوم يحبهم ويحبونه).)يا أيها الذين أمنوا أن تطيعوا فريقاً من الدين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين. وكيف تكفرون وانتم تتلي عليكم آيات ا وفيكم رسوله ومن يعتصم با فقد هدي إلـى صراط مستقيم) .

وتعرض القران لعقوبة الموت فى اكثر من مناسبة فلم يوجبها إلا كنوع من القصاص أو عقوبة للزنا والقتل، ولو كانت الردة توجب هذه العقوبة لنص عليها جنباً إلى جنب قتل الـنفس والزنا بعد إحصان .

وكما أن القرآن الكريم لم ينص علي عقوبة للردة فلم يرد في السنة الفعلية شيء من هذا. فلم يوقع النبي) عقوبة بالفعل علي شخص ما لأنه ارتد، وعلي العكس لقد ارتد عبد ا بن سعد ابن أبى سرح وكان قد اسلم وكتب الوحي للنبي ثم فر إلى قريش وارتد واخـذ ينـدد بـالنبي) ويحرض قريشا علي المسلمين ويقول لهم أن دينكم خير من دينه فأهدر النبي) دمه، فلما كـان فتح مكة لاذ بعثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة فغيبه حتى اطمأن الناس وأحضـره إلـي النبي) وطلب له الأمان فصمت الرسول طويلا ثم أمنه فاسلم. ولو كان هناك حد لما قبل النبـي شفاعة. كما قدم إلي النبي رسولا مسيلمه الكذاب بكتابه الذي يقول فيه "من مسيلمة رسول ا إلى محمد رسول ا . سلام عليك أما بعد فإنى أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشا قوم يعتدون"، فقال لهما النبي ما تقولان أنتما فقالا نقول كما قال فقال أما وا لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما فلو كان هناك حد لما أعفتهما صـفتهما لأنهمـا ليسا مجرد نقله، وإنما هما أيضاً مؤمنان بهذا الشرك [1] .

ويشهد لهذا كله أن الإيمان يتعلق بالقلب والنية. وان أى إرغـام لا يجـدي. بـل يفسـد الضمائر، فالتدخل فيه بالإجبار لا يفيـد، بل يخالف حكمة الإيمان .

أما الأحاديث التي جاءت بقتل المرتد فهي أحاديث آحاد، ونحن لا نعلم ملابسـاتها. وقـد يراد بها الردة المسلحة والمناوئة. ولا سيما وان بوادرها كانت قد بدت في آخر حياة النبي) وهو ما ذهبت إليه أبن تيميه وفي الحديث إلي جانب التارك لدينه "المفارق الجماعة " وقد يفهـم مـن حديث "من بدل دينه فاقتلوه" أي ردة علي الإطلاق فلو أسلم مشرك أو مسيحي أو يهودي لوجـب قتله ! وهو أمر لا يستقيم ومع كل هذا فهناك من يري أن أحاديث الآحاد لا يعمل بها في العقائد. ولا يجوز لها أن تصادم الآيات المتكررة، وروح الإسلام .. وحكمة الإيمان، وحرية العقيدة ...

---

١. وهناك حالات عديدة أخرى ضمناها كتابنا " الإسلام وحرية الفكر" الصادر فى ١٩٩٩ . " إضافة خاصة بالطبعة الثالثة " ..

ولهذا فنحن نجزم بوجود "حلقة مفقودة" تحول دون حجية الحديث. ولا نري عقوبة جنائية في مثل هذه الحالة، ومن يستغن عن الإسلام، فالإسلام غنى عنه.. ومن يرفض منة الإيمان فإنما يجني علي نفسه، ويحرمها ..

ويضيف الفقهاء كذلك حداً هو حد البغي. ويبنونه علي الآية ال[illegible] المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما علي الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلي أمر ا ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن ا يحب المقسطين) وليس هذا حداً بالمعني الجنائي، وهو يصور أفضل تصوير ما يمكن أن يتبع في حالة القتال بين فئتين مسلمتين، وهي أصلح قاعدة يمكن أن يقوم عليها حاف إسلامي يحول دون الانشقاق والثورات بين الدول الإسلامية، ولو طبقت الآية لما حدثت الحرب في باكستان، ولما وجدت يمن جنوبية وأخري شمالية، أو علي الأقل لسادت بينهم جميعاً علاقات الأخوة الإسلامية .

ويلحظ الإنسان عند قراءة ما جاء بهذه الموضوعات بالمراجع القديمة أو الحديثة علي سواء أن العناية انصبت علي التفاصيل والفروع والقياس والاجتهاد والتخريج والتأويل وغير ذلك من "عدة" الفقهاء. دون إعطاء المصادر الرئيسية الثلاثة حقها. وهي **كتاب ا . والسنة الفعلية أو الثابتة. وروح الإسلام،** وقد نسج معظم الكتاب المحدثين علي هذا المنوال، لان معظمهم من المحامين أو القضاة الذين تعودوا علي التسليم للشروح وان دورهم هو البحث عن نصوص الشراح والأخذ بها دون إبداء الرأي فيها فالزيلعي لديهم مثل "دالوز" مثلا، ما أن يرد نص منه حتى يبادروا بالاستشهاد به ونقل عبارته بنصها، وقد يغلب علي بعضهم مسحة من القسوة أو الجمود أو التسليم اكثر من التحقيق.. ويمكن أن يقال بصفة عامة أن الذين كتبوا عن الشريعة الإسلامية من القضاة والمحامين "المدنيين" اكثر "تقليدية" واتباعاً من كبار الشيوخ والفقهاء الذين عالجوا الموضوع، والذين لا يأخذون قضية مسلمة أقوال الشراح والفقهاء.. وبين يدينا كتابان لأستاذين فاضلين محققين **أولهما** "كتاب التشريع الجنائي الإسلامى مقارناً بالقانون الوضعي" للقاضي الشهيد عبد القادر عودة، **والثاني** كتاب "التعزير في الشريعة الإسلامى " للقاضي الدكتور عبد العزيز عامر، وقد جاء بأولهما مثلا.. "ومن المتفق عليه بين الفقهاء أن لفظ أيديهما يدخل تحته اليد والرجل" ص ٦٥٢ ج ١، وكان يجب عليه أن يحقق هذا ويذكر رأيه. والمفروض أن لا تنسحب الكلمة إلا علي معناها ومدلولها اللفظي ولا يجوز أن تمتد إلي غيرها، وخاصة إذا كان الآمر أمر عقوبات، وقد أورد المؤلف العبارة كأنها شيء بديهي مسلم به. وكان الأجدر به أن

يحقق نقطة كقطع اليد اليسرى بدلا من اليمني مثلا تيسيراً للمذنب مواصلة العمل، وخصوصاً وان الأثر المادي والنفسي للقطع واحد في الحالتين تقريباً .

كما قال عند الحديث عن العفو "ليس للعفو أي اثر علي الجرائم التي تجب فيها عقوبـات الحدود. وليس للعفو اثر علي هذه العقوبات سواء كان العفو من المجني عليه او من ولي الآمـر. فالعقوبة في هذه الجرائم لازمة محتمة، ويعبر عنها الفقهاء بأنها حق ا تعالي لأن ما كان حقاً امتنع العفو فيه وإسقاطه" ونحن نفهم أن يكون غرض المؤلف حسم "المحسوبيه" والتفرقـة بـين الناس بحيث يطبق الحكم علي الفقراء ويستثني منه الأغنياء، وهو أمر نقره عليه. ولكـن إيـراد الفقرة بهذه الطريقة لا يعطي هذا المعني.

وكان يجب حسما للظنون والشكوك أن يشير ضمن الفقرة نفسها إلـي الملابسـات التـي تحوط هذا التشدد والإطلاق مثل توفير البيئة الإسلامية التي تحقق العدل. ولعل مثل هذه البيئة لم تتوفر للمجتمع الإسلامي إلا في فترات قليلة جداً مثل عهد الخلفاء الراشـدين، وبعـض الـولاء والأمراء المعدودين. وقد أوقف عمر بن الخطاب حد السرقة عام الرمادة، ولم يقطع أيدى غلمـان حاطب رغم إقرارهم بالسرقة. وهناك روايات عن أن النبي) أمر بإيقاف حد السـرقة فـي دار الحرب أي عندما يغزو المسلمون وجاءت رواية عن عدم رجـم زان رغـم اعترافـه لأن هـذا الاعتراف جاء بعد اتهام آخر كاد أن يرجم، فأرتوى أن اعتراف الجاني الأصـلي أنقـذ حيـاة، فاستحق الإنقاذ .

أما تعبير حق ا ، وحق العبد، فإن ما يقر في النفس هو عكس ما أراده الفقهـاء ! أي أن حق ا يحتمل الرحمة والعفو.. لأن ا غني عن العالمين. ولأنه الرحمن الـرحيم . ولكـن بعض الفقهاء. نصبوا أنفسهم حفظة علي خزائن رحمة ا فحق عليهم قول ا تعالي)قل لو أنـتم تمسكون خزائن رحمة ربي لأمسكتم خشية الأنفاق) ويغلب أن يحمل تعبير حق ا الفقهاء وأولي الأمر علي التمسك تعصباً، والتشدد تظاهراً ومن الخير أن يلتزموا تعبير النبي) عنـدما غضـب لوساطة أسامه وقال "أتحدثنى في حد من حدود ا " وهناك فرق بين كلمة حد وكلمة حـق . لأن الحدود متعينة ومحصورة، ولكن كلمة حق تحتمل التأويل ويمكن أن تنسحب علي الكثيـر،. وقـد ذهب الفقهاء بعد إلي أن مراعاة الصحة أوجب من الصيام لمن يضره الصيام، وإلي تفضيل سداد الدين علي الحج لمن لا يوجد لديه إلا مبلغ لا يكفي إلا للدين وإلي إباحة قطع الصلاة إذا تعـرض مال المصلي للتلاف. وكل هذه الواجبات المؤخرة تدخل في باب ما يسمونه "حق ا " .

وجاء في الكتاب الثاني "وهو كما ذكرنا- التعزير في الشريعة الإسلامى للقاضي الدكتور عبد العزيز عامر" عند إيراد حد الرده" ".. وإنني أري في إمهال المرتد أياما ثلاثـة مصـلحة، إذ ربما راجع نفسه خلالها وعاد إلي الحق، واحتمال عودته إلي الحق ترجح عندي هذا الـرأي ولا سيما وأنه سوف لا يفلت من العقاب بعدها إن لم يتب، فلا ضـرر فـي الإمهـال مـع احتمـال المصلحة" ص ١٨ فكيف جاز للقاضي الفاضل أن يسلم في هذا الأمر العظيم أمر الإعدام.. إعدام الحياة العضوية أو الحياة الأدبية لرأي فقهاء لا يستند إلي نص صريح من القـرآن، وإنمـا إلـي حديث مرجوح بفعل النبي) نفسه وروح الإسلام.. ؟ أفلم تقرع آذانه الآية)أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) وكيف لم تتحرك في نفسه "الحاسة القضائية" التي تثور قبل إصدار كـل حكـم . وتدفع صاحبها لأن يراجع نفسه مرة وأخرى، وان يتلمس كل البدائل ويتحرى كـل الظـروف ؟ ولعله كان يجد شبهة يدرأ بها هذا الحد المزعوم في كلام الشراح أنفسهم. إذ يبدو أن هناك فهمـاً مسبقاً لحالة الردة يجمع بينهما وبين المحاربة، ففي بداية المجتهد ونهايـة المقتصـد مـثلا نجـد تعبيرات مثل".. المرتد إذا ظفر به قبل أن يحارب". "و. أما إذا حارب المرتد" فهناك افتراض في الحالين يجمع ما بين الردة والحرب.. سواء ظفر بالمرتد قبل حربه أو بعدها، ومثل هذه الشـبهة، علي ضعفها، تصلح تكأة لصرف هذه العقوبة القاسية، إن لم يشأ المؤلف أن يجتهد وأن يكون لـه رأيه الخاص المبني علي الآيات القرآنية وفعل النبي صلي ا عليه وسلم وروح الإسلام وطبـائع الأمور .

لا جرم أن هذه الكتابات وأمثالها، وما تنم عليه من تمسك بـأقوال المتـأخرين. وعـدم معالجة الأمور من كافة الزوايا، هي التي أثارت الخوف من الشريعة الإسـلامية فـي نفـوس البعض، وهو ما يجعلنا نصر علي ضرورة العودة بالأحكام إلي الأصول النقيـة المحكمـة مـن القرآن والسنة الثابتة واستلهام روح الإسلام والنظر إلي أحكام الأئمـة السـابقين باعتبارهـا وجهات نظر نأخذ منها وندع طالما هناك متسع وفسحة دون تعسف أو تكلف أو استكراه .

وقد تصور البعض أن في العقوبات الإسلامية كالقطع والرجم "وحشية" ونحـن — كمـا ذكرنا — نعترف بأن هذه العقوبات ليست من العقوبات المحببة التي يسر بها أي مشرع، ولم يسعد بها النبي) نفسه. وقد روي المشاهدون لأول حالة قطع أن وجه الرسول تغير تغيراً شديـداً... وفي رواية "كأنما ذر عليه الرماد "ولما قيل له يا رسول ا كأنك كرهت قطعه قال وما يمنعني لا تكونوا عونا للشيطان علي أخيكم. إنه ينبغي علي الإمام إذا انتهي إليه حد أن يقيمه، إن ا عـز وجل عفو يحب العفو" وليعفوا وليصفحوا.. ألا تحبون أن يغفر ا لكم، وا غفـور رحـيم [1]

---

١. الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ص٦٧ من الجزء ١٦ .

ولكنها مع ذلك إحدى الضرورات البغيضة التي يفرضها شذوذ وانحراف بعض الأفراد، ولا يكون هناك مفر منها حرصاً على مصلحة المجتمع، وتطبيقها يحقق وقائيـاً وبالنسـبة لكـل المجتمـع الاستقرار والصلاح، وأنها عند التحليل العقلي المتزن البعيد عن التأثر بالعواطف العابرة لا تعدو أن تكون ضرورة بغيضة، ولكنها لازمة، أو أنها — في المدى البعيد أرأف، وأكثر إنسـانية مـن العقوبات الحديثة. أو هما معاً. ويجب أن نصارح أنفسنا بأن الأسلوب القاسـي- مـع ملاحظـة الضمانات- أفضل من التميع والنفاق والضعف الذي يكون في حد ذاته جنايـة علـى المجتمـع والجاني نفسه لأنه سيؤدي إلى تضاعف الجرائم، وتعدد العقوبات.

ومما تتميز به الشريعة الإسلامية

أولاً: تطلبها وجود البيئة الإسلامية التي تعف عن الجريمة فلو ارتكبت الجريمة لأن البيئة تفتقر إلى العدالة أو الأوضاع السليمة لأثر ذلك على تطبيق الحدود. لأن تطبيق الحدود افتـرض المجتمع الإسلامي وأوجد ضمانات عديدة — فإذا لم يتوفر هذا أو ذاك، انعكس ذلك على الحدود، كما حدث في الحالات التي أشرنا إليها من قبل (إيقاف عمر لحد السرقة في عام الرمادة، وإعفائه غلمان حاطب من القطع. الخ..). بل لقد اعتبر بعض الفقهاء أن السرقة من بيت المال لا توجـب القطع. لأن لكل المسلمين نصيباً فيه .

ثانياً: تشديدها في أدلة الإثبات تشديداً كبيراً وصياغتها بطريقة تحقق للمتهم أعظـم قـدر متصور من الضمانات، وليس أدل على ذلك من محاولة ثني المعترف عن الاعتراف في حـالتي الزنا والسرقة، وتكرار الإقرار ودرء الحد بأي شبهة واستبعاد الإكراه بحيث يسقط أي اعتـراف، بل العقوبة نفسها، نتيجة لذلك .

فأين من هذا القانون الروماني "الذي كان يتخذ التعذيب وسيلة مقـررة للحصـول علـى الأدلة". كأن الأدلة التي يحصل عليها بالتعذيب يكون لها قيمة ...

وتعتمد الشريعة الإسلامية بالدرجة الأولى على الإقرار الحر المتكرر، وقلما تلجـأ إلـى القرائن لاحتمال التباسها بعدد من العوامل .

ثالثـاً: أن العقوبات في الشريعة الإسلامية شخصية، وأثرها يقع على شـخص المـذنب، وبذلك يكون إحساس المذنب بها مباشراً، ولا تتأثر بالعقوبة أسرته وعائلته التي يمكن أن تتشـرد عند سجن عائلها. فهي قد تكون أقسى على المذنب، وهو الجاني، ولكنها أرحم بعائلتـه البريئـة. وهكذا نرى أن القسوة في العقوبة صادفت محلها، وجعلت العقوبة بمنأى عن أبرياء .

رابعاً: أن العقوبة سريعة وناجزه لا تعطل المذنب نفسه ولا تقتضي من الدولة إقامة جهاز ممرد للعقوبات في شكل مصلحة للسجون، تبتلع جهود عشرات الألوف من الضـباط والحـراس والموظفين. ويدفع الشعب تكلفتها .

خامساً: أن مبدأ القصاص يحقق العدل والردع معاً، العدل لأن المذنب لن يصيبه إلا مثل ما فعل دون زيادة أو نقصان، والردع لأنه عندما يعلم المذنب بذلك فسيكف، أو على الأقل سيهبط بأذاه إلى الحد الأدنى .

وقد حاولت الدراسات الحديثة أن تشوه صفحة القصاص ولكن الحقيقة أن العصر الحديث أبرز حكمة جديدة للقصاص، فقد فشت مع دخول صور الحكم الشمولية (الشيوعية والنازية الـخ) ظاهرة تعذيب المعتقلين ، ولم تكن هذه الوصمة لتظهر لو علم هؤلاء الجلادون أن القصاص لهـم بالمرصاد، كما لم تكن لتتكرر هذه الظاهرة لو فعل بهؤلاء الجلادين ما فعلوه بالناس، ولحسـمت شأفتها ..

سادساً: تأخذ الشريعة الإسلامية في حالات عديدة بمبادئ لا يأخذ بها القـانون الوضـعي مثل التوبة والقصد والعفو في حالة القصاص والتسوية بالحسنى قبل توصيل الأمر إلى السلطات. وتوصي بالتستر وتكره أن تشيع الفاحشة وتحرم التجسس على الناس .

سابعاً: أن العقوبة في الشريعة الإسلامية "مكفرة" ومطهرة فإذا وقعت بإقرار كانت تطهيراً له وتوبة، وإذا وقعت بغيره فإنها تعد أداء لدين وتكفيراً عن ذنب ولا تستتبع قط أثاراً تبعية، فـي حين أن العقوبة في القانون الوضعي تصم المذنب إلى الأبد بوصمة الجريمة، وتطلق فـي أثـره وحشاً رهيباً وشبحاً مخيفاً اسمه "العقوبات التكميلية أو التبعية" وهذه العقوبات تحرم على المـذنب الاشتغال بالمهن والوظائف حتى وظيفة "كناس" وتسقط عنه الألقاب وتوجـب المراقبـة وتجعلـه منبوذاً وتلاحقه في كل مسالك الحياة، وتدمر مستقبله وهي في الحقيقة أسوأ من العقوبات الأصلية

ثامناً: لئن كانت عملية الجلد أو القطع مؤلمة أو قاسية، أو حتى مذلة. فإنها رغم هذا كلـه قد تكون أخف من عقوبة السجن التي هي البديل الوحيد تقريباً عنها، والتي أصبحت عقوبة لمعظم الجرائم والجنايات، ففي السجون إذلال مادي يتأتي من الإسـكان فـي أقفـاص حديديـة كأنمـا المسجونون وحوش كاسرة، والحرمان من المطعم إلا ما يقيم الأود، وبعد أن يتفنن "المتعهـدون" والموظفون في سرقته وبخسه بحيث يصبح هو وطعام الحيوان سواء، والحرمان من أي مشروب ، وحتى وقت قريب كان "عقب السيجارة" جريمة يعاقب عليها عقاباً صارماً، والنوم على الأرض أو "البرش" والتعرض للحشرات والهوام وعدم توفر وسائل النظافة مما يعرض صحة المسجونين للخطر أو يصيبهم بشتى الأمراض .

وهناك أيضاً الفصل بين الأزواج والزوجات مدداً قد تطول وتحـوج المسـجونين إلـى الاكتفاء الذاتي الجنسي وأن يصبح الشذوذ الجنسي أمراً مقرراً لا محيص عنه تقريباً وبعد كل هذا فإن هناك عقوبات على الإخلال بالضبط والربط في السجون وقد تصل إلى حد الجلد . وهذه هي "عقوبة العقوبة" أو "الشيء لزوم الشيء" كما يقولون.. وكان لهم عن هذا غنى .

وفي السجون إذلال أدبي ينشأ من تقييد الحرية، وإسـاءة المعاملـة والتكبيـل بـالأغلال الحديدية .

وأخيراً فهناك سوءة السجون الخالدة ألا وهي خلطة الأبريـاء أو ضـحايا الخطـأ الأول بالعتاة من المجرمين والممرسين في الانحراف بحيث تصبح السجون مدارس إجـرام.. وحلقـات انحراف وهو أمر معروف ومسلم به ..

قد يقال إن إصلاح السجون يمكن أن يقضي على السوءات، ولكن من الواضح أنه بقدر ما تصلح السوءات بقدر ما يقل الإحساس بمعنى العقوبة، وإذا ارتفع المستوى بالسجون إلى ما يماثل مستوى عامة الشعب، فإن السجون تصبح نوعاً آخر من البيوت أو الفنادق. وقد كـان هـذا أول حائل وقف في طريقنا عندما كونا "الجمعية المصرية لرعاية المسجونين وأسرهم" وأذكـر أنـي عندما طالبت اللواء حسين كامل مدير عام السجون سنة ١٩٥٤ بوضع أسرة بدلاً من البرش قـال الرجل "كيف أسوي بين المجرم والجندي؟" كما تساءل أحد كبار الكتاب- الأستاذ التابعي — عندما طالبنا بإحلال لقب "نزيل" "محل لقب مذنب" عن الفرق بين نزيل السجن ونزيل الفندق ..

دع عنك تخصيص جيش من الجنود والضباط والموظفين وإنفاق مبـالغ ضـخمة علـي الصيانة والإيواء وإشغال أماكن ومبان كبيرة في هذا كله ..

وعقوبة السجن بعد إهدار للزمن الثمين ، كما هي تقييد للحرية، فلو فرضـنا أن متوسـط عدد المسجونين العموميين هو عشرين ألفاً، وأن متوسط سنوات العقوبة هو خمس سـنوات لمثـل ذلك مائة ألف سنة تضيع هدراً من حياة هؤلاء المسجونين .

لهذا كله فإن عقوبة الجلد، أو القطع، اكثر رحمة، وأبقي علي الكرامة في المدى البعيد من عقوبة السجن، فضلا عن انتفاء العيوب الأخرى الكبيرة التي تحفل بها عقوبة السجن .

تاسعاً: أن الشريعة الإسلامية أعطت القاضي سلطة كبيرة فيما هو دون الحـدود بحيـث يمكنه في هذه الحالات أن يلحظ شخصية الجاني وظروفه الخ.. وهي في هذا أفضل من العقوبات الوضعية المحددة التي لا يكون أمامها مجال لملاحظة الظروف الخاصة. والتشريع الإسلامي في هذا يجري علي نقيض ما افترضه في الحدود التي تمثل عادة الكبائر أو أشد الجرائم إغراء، وبهذا

تجمع الشريعة ما بين الحدود المقدرة التي لا تفرق بين الأشخاص، والتعزير المرن الذي يلحـظ شخصية الجاني .

عاشراً: تأخذ الشريعة الإسلامية بمبدأ "إن الحسنات يذهبن السيئات" "فأتبع السيئة الحسـنة تمحها" ففي جميع الجنايات — باستثناء الحدود — يمكن معاقبة المذنب بالصيام أو بعتق رقبـة أو بإطعام كذا مسكينا، وهي عقوبات تشعر بغرم العقوبة، وتفيد المجتمع في الوقت نفسه، وكان يجب على المشرعين والفقهاء المسلمين أن يتوسعوا في تطبيق هذا المبدأ الجليل، وأن يفتحوا له أبوابـاً تتلاءم مع تطورات العصر خاصة بعد إغلاق أكبر أبوابه- وهو عتق الرقاب .

ولا يعرف القانون الوضعي في هذا الباب سوي الغرامة العقيمـة والشـغل "مصـاريف" وشتان بين هذين وما أبدعه الإسلام .

حادي عشر: تضمنت الشريعة الإسلامية عدداً من المبادئ الثمينة تحسـدها عليهـا أيـة شريعة أخري ولما يصل إليها بعد التقدم في معظم المجتمعات بحيث تطبقها تماماً مثـل (**لا تـزر وازرة وزر أخرى**)، (**لا يضار كاتب ولا شهيد**)، (**لا ضرر ولا ضرار**) ومثل **استبعاد كـل صـور التمايز أمام القضاء بما في ذلك رئيس الدولة فنازلا، ومثل درا الحدود بالشبهات، ومثل إفسـاح المجال للعفو في حالات القصاص والحض عليه، ومثل تحريم التجسس والإيقاع بالناس، ومثـل استبعاد الاستكراه في كل صوره، ومثل حق الملتزم في إملاء العقد بحيث تنحسم شافة "عقـود الإذعان" التي تمليها الشركات والهيئات علي العمال والمستهلكين، ومثل حق كل فرد في تحريك الدعوى العمومية تحقيقاً لمبدأ مسئولية الدولة عند عدم التوصل إلي الجاني بحيث لا يضـيع دم في الإسلام ..**

وهذه المبادئ كلها من مفاخر ودرر التشريع وتنكشف أمامها شموس الشرائع الأخرى ..

***

هذا كله عن التشريع الجنائي الذي يتعرض عادة لسوء الفهم، إن لم يكن للهجوم ..

وأما تشريع الأحوال الشخصية، وما يتعلق بالزواج والطلاق، وشخصية المـرأة الـخ.. فسنشير إليه في الجزء التطبيقي من هذا البحث الذي نرجو أن يصدر قريباً [١].

□□□□ أما التشريع المدني والاقتصادي فلا يتسع المجال ألا لإشارة مقتضبة جـداً عـن الزكاة وتحريم الربا. وهما تشريعان اقتصاديان متقابلان يوجب الأول التكامـل ويحـرم الثـاني الاستغلال. ولا يتسع المجال لمناقشة حكمة تحريم الربا، وحسبنا أن نقول أن الفائدة "وهي الاسـم العصري المقنع للربا" قد مكنت من توسيع المعاملات، وإقامة البنوك وتحقيق الثورة التجارية التي

---

١. كما قلنا فى المقدمة، لم يصدر هذا الجزء الثانى، ولكن ظهر عدد من الكتب يعالج كل كتاب ناحية، ولعل آخرها "المرأة المسلمة بـين تحرير القرآن وتقييد الفقهاء " .. إضافة للطبعة الثالثة " المؤلف " .

أدت بدورها إلي الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، وقيام ذلك البناء الاقتصادي والإنتـاجي الممرد بخيره وشره، نعمائه للمستثمرين وضرائه علي العمال والمستهلكين. وعندما كان الاقتصاد الرأسمالي في الأوج يكتسح العالم بقوة وعرامة، كان من العسير إصابة "كعب أخيل" فيه الذي هو في الوقت نفسه حجر الأساس له - أعني الائتمان والنظام المصرفي الذي يقوم علـي عمليـات الإيداع والإقراض وفتح الحسابات و"خلق النقود" كما يقولون - وهي كلها تعتمد على الفائدة فـي الملاذ الأخير . ولكن القرن العشرين تضمن تجربتين هامتين. الأولى هيمنة الحكومات في الدول الاشتراكية على البنوك والائتمان وإداراته، وأوضح ذلك أن من الممكن قيـام اقتصـاد مخطـط يستغني عن الفائدة، وأن الفائدة ليست إلا وثناً من الأوثان التي تعبد حيناً حتى تنكشـف حقيقتهـا فتنبذ ويقذف بها على الكوم المتعال لحطام الآلهة المزيفة. والثانية الأزمة الاقتصـادية العالميـة الطاحنة التي بدأت بتهاوي أحد البنوك النمساوية سنة ١٩٢٩ وانتهت بإغلاق بورصة نيويـورك وبنوكها سنة ١٩٣٣ وأوضحت أن الاقتصاد الرأسمالي المصرفي يقوم على رمال، وأن قوانينـه الطبيعية التي تعمل آليا من عرض وطلب، ومنافسة الخ لا يمكن أن تترك لنفسـها، وإلا أوقعـت نفسها في مأزق، بل في مغرق [1] .

وأوضحت هاتان التجربتان بجلاء أن الفائدة ليست بالضرورة التي يتصورها الاقتصاديون الكلاسيكيون، ومع هذا، فمن المسلم به أنه ما لم يكن هناك اعتقاد ديني يربأ بالناس عن الكسـب السهل ويحول بينهم وبين الانسياق وراء وازع الربح فستوجد الفائدة بصورة أو بأخرى، فإن هذا هو ما أوجدها بعد أن حرمتها المسيحية طوال القرون الوسطى .

وبالنسبة للتشريع السياسي، فحسب الإسلام فخراً أنه وضع مبدأ "الشورى" وأنه لم يمـض به إلى الديماجوجية المبتذلة، أو يضيقه بحيث يحصره في حزب حاكم ولكن أراد له الوسط النافع والمفيد فهناك تقييد بأصول يلتزم بها الحاكم والشعب على السواء. وهناك حرية مطلقة في نقـض كل التصرفات. وهذه النقطة الثانية تمثل مبدءاً ثانياً من مبادئ الإسلام السياسـية وهـو السـماح بالمعارضة وتقبلها والعمل بها عندما تثبت صحتها .

الفصل الثامن

والإسلام - أيضاً – تراث

- - - - - - -

مع أن العناصر الأربعة السابقة وهي العقيدة والعبادة والخلق والشريعة تمثل لنا المكونات النوعية للإسلام إلا إن هناك عنصراً خامساً لا يمثل ناحية نوعية، ولكن العمق التاريخي والبعـد الأفقي معاً أي مرور ألف وأربعمائة سنة على الإسلام، وامتداده بحيـث يغطـى نصـف الكـرة الأرضية ..

وقد لا يضيف هذا المكون شيئاً إلى جوهريات وأساسيات الإسلام فهذه الأساسيات هي ما تقدمه المكونات الأربع كما أنزلت على الرسول) حتى بدأت صفحة التراث وأخـذت كـل يـوم تضيف جديداً سواء، جاء هذا الجديد نتيجة الاجتهاد أو الامتداد بحيث أصبح هذا المكون مـورداً مفتوحاً يزداد مع كل يوم ومع كل انتشار جديد للإسلام، ويثري كل المجـالات. وأصـبح أشـبه بالأغصان الوارفة لشجرة الإسلام التي يتفيأ ظلها وينعم بها مسلم العصر الحديث، بل لقد وصـل درجة كاد أن يستحوذ على الأساسيات ويحتويها بمثل ما تحتوي الشجرة البذور. وكأن الأساسيات هي تلك البذور التي وضعها محمد) منذ ألف وأربعمائة عام في جزيرة العرب ، فنقلتها الريـاح إلى كل بقاع الإسلام حيث نمت وربت وأصبحت أشجاراً غليظة ذات جذور متغلغلـة وأغصـان وارقه وذابت وتحللت فيها البذور دون أن تكون هذه الأشجار - ضرورة - مطابقة كل المطابقـة للبذور. لأن عملية النمو تتطلب إلى جانب البذور التربة الصالحة والمناخ الملائم والرعاية الـخ.. وهذه كلها ما يختلف من مكان إلى مكان. وهذا ما يوضح لنا كيف أن هذا المكـون أصـبح لـه وجوده الذاتي وحكمه الخاصة حتى وإن لم يقم إلا على المكونات الأربـع الماضـية. وكيـف أن

التمييز ما بين البذور الأصلية التي جاء بها محمد) والعوامل الأخرى التي أثرت علـى عمليـة النمو الطويلة.. إجراء له ما يبرره فليست كل الأجواء بالأجواء الملائمة.. كما أن هناك عوامـل خارجية أو خاصة أثرت على نمو الأشجار .

وهكذا نجد أن أبرز خصيصتين للتراث هما :

أولاً: أن التراث يكاد يمثل "جسم" الإسلام وجرمه وظله الوارف ومادته الغزيـرة التـي يمكن أن نأخذ فكرة عنها عندما نعلم أن عمر الأساسيات لا يزيد على ٢٣ سنة وهي مدة الرسـالة المحمدية من البعثة حتى وفاة النبي) في حين أن عمر التراث يقارب أربعة عشر قرنـاً كمـا أن المدة الأولى كانت محصورة في شخص النبي) وما نزل عليه من وحي، في حين أن المدة الثانية كانت تغطي نصف الكرة الإسلامية من أسبانيا غرباً إلى الصين شرقاً .

ثانياً: أن التراث بحكم هذه المدة الطويلة والمساحات الواسعة والبيئات المختلفة التي نمـا فيها والنظم التي خضع لها الخ.. تضمن كثيراً من الكنوز الثمينة التي لا تعوض ولا تقدر بمـال وكثيراً من الهراء.. والحشف البالي الذي لا يساوي شيئاً .

ويجب أن نعرف أن التراث ليس كما يفهمه البعض الأوراق الصفراء. التي تـؤوى فـي مكتبات "الاسكوريال" أو "لا يدن" أو حتى "الصنادقية" [1]، ولكنه أيضـاً قـيم ومبـادئ ونظـم وحضارة ..

وليست المأساة في التراث هي وجود السيئ السقيم إلي جانب الحسن السليم، فإن هذا أمر تقتضيه طبائع الأشياء، ولكن المأساة في التراث هي أن النشء الإسلامي الحديث عزل عزلا تاماً عن تراثه، وقطعت كل السبل التي تؤدي إليه.. أو تصله به. فالثقافة المدرسية الحديثـة لـم تستطع أن تتخلص من المنطلق الذي تنطلق منه.. والنهاية التـي تنتهـي إليهـا التـي وضـعها الاستعمار، أو الفهم الأوربي. فهي تشير إشارات سريعة مقتضبة إلى الحضارات القديمة. ثم تبـدأ البداية الحقيقية من اليونان والرومان اللذين يمثلان من وجهه النظر الأوربية أصـول الحضـارة والفلسفة والقانون والنظم السياسية والإدارية ثم تعبر عنهما ألي القرون الوسطي "المظلمة" حتـى عهد "الرينسانس" أو الإحياء أو النهضة التي بدأت في الجمهوريات الإيطالية ثـم ظهـور فكـرة القومية، وبدأ الثورة التجارية وعهد الاكتشافات والفتوح الاستعمارية ثم الثـورة الصـناعية فـي بريطانيا والعصر الحديث. فإذا ذكرت الثورات فهناك الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية ثم الثورة


البلشفية سنة ١٩١٧، ويطرز هذا التاريخ بأسماء قادة وزعماء وفلاسفة يكاد يكون تسعة أعشارهم بلا استثناء من الذين أسهموا بصورة ما في استنزاف الشرق أو القضاء علي استقلاله أو تشـويه صورته، صحيح أن مناهجنا أدرجت في "القرون الوسطي "فصلا عن الإسلام وظهوره وتـاريخ الدولة الأموية والعباسية، ولكن السياق العام والروح الأصلية للنهج لم تجعل لهذه الزيـادة قيمـة كبيرة.. والوضع أسوء بالنسبة لطالب الجامعة، فهو يدرس علي يدي أستاذ حديث أو قديم العهـد بالثقافة الأوربية التي تشربها في إحدى جامعاتها، وهو يكلف بالرجوع إلى مراجع أجنبية، وهناك كليات تدرس موادها باللغة الإنجليزية .

وتكون النتيجة أن أستاذ الجامعة، وخريج الجامعة، وطالب الجامعة كلهم سواء في الجهل بالتراث. بل إنهم لا يكادون يتكلمون عربية سليمة ..

وليس الأمر أمر مناهج مدرسية أو أكاديمية، ولكنه أمر ثقافة عامة تنتظم الفنون والآداب التي تكاد تكون مستوردة أو ممصرة تطغي عليها قلباً وقالباً الروح الغربية، قلباً لان مثلها العليـا والقضايا الأساسية التي تعالجها أقرب ألي المجتمع الغربي منها إلي المجتمع العربي، وقالبـاً لأن الصور التي تتقمصها بعيدة عن الذوق والطبع الإسلامي سواء في ذلك الشعر المنثور، أو موسيقي الجاز ، أو صور القسوة والتعذيب والتحلل التي تطفح بها الروايـات السـينمائية الأمريكيـة أو المستوحاة من الأمريكية. ونتيجة لهذا كله لوث الذوق العربي وسـرت الهجنـة إلـى الأسـاليب العربية، فلا يكاد الكاتب أو الشاعر يقيم لسـانه أو يـأمن الخطـأ واللحـن ولـولا المراجعـات والتصحيحات المتكررة التي تقوم بها دور الصحف والجرائد والنشر لرأي القراء الأعاجيب ..

ونشأ عن هذا كله تيار جديد جارف عصف بكل ما هو قديم.. وطارده وألجأه إلى أضـيق المسالك. إلى الحواري والأزقة والقرى ، بينما انفرد هو بالشوارع الرئيسية والميـادين العامـة.. حتى كادت الروح الأصلية أن لا تجد ملجأ.. أو ملاذاً إلا قلب الفلاحة الأمين حيث يقر تحت طبقة من الغشاوة المنفرة تمتزج فيها الخرافة بالحقيقية. وحتى هذا الملاذ الخير، أخذ يطـارد أيضـاً، وهاجمه الجديد في عقر داره، بل في عقر كوخه المتواضع، عن طريق الراديو الترانزيستور ...

وأذاب هذا كله العرف التلقيدى والآداب المتوارثة التي كانت تربط أفراد المجتمع وفئاتـه بعضهم ببعض، فتحللت الروابط والأواصر. فقبلا كان الأغنياء يرون عليهم التزاماً أدبيـاً نحـو الفقراء، وكان الصغار يوقرون الكبار، وكانت الزوجات يثقن فى أزواجهن، ويستمعن لهم ويوقرن آباء وأمهات أزواجهن. وبهذا الفهم أمكن التغلب علي صعوبات الحياة وشظفها. وإنه لمـن أهـم

الأمور أن نوضح أن العلم والمال ليسا وحدهما وسائل حل المشكلات أو تـوفير السـعادة . فقـد يتيسر العلم، كما قد يتيسر المال، ولكن هذا لا يحل المشكلات، علي العكس لعلها أن تزيد وتتفاقم. وقد كان الإيمان بقيم مسلم بها ومجمع عليها والفهم المتبادل والثقة أقدر علـي حـل المشـكلات وتحقيق الوئام .

وبالطبع، فليس كل جديد ضار، فحتى أكثر المحافظين يعترفون "بالبدعة الحسنة " وبأنـه "لابد للزمان أن يتنفس" ولكن المؤسف أننا لم نجعل المناط هو القيمة أو الفائـدة ، ولكـن الجـدة فحسب ، كائناً ما كانت هذه الجدة، وحتى لو كانت تقليداً أعمي أو تزييفاً فجاً فقد نفضـل كلمتـي "الهمبرا" "وكايرو" علي كلمتي "الحمراء" و "القاهرة" وهكذا نخرج من النقيض إلى النقيض.. مـن أن كل جديد بدعة.. إلي أن كل قديم لعنة ...

***

وقد ارتأى البعض أن إصلاح هذا الوضع يكون ببعث التـراث ونفـض الغبـار عنـه، وإخراجه إلى نور الحياة ، ولكن الحقيقة أن هذه العملية ليست - كما تصوروا - عملية ماديـة أو أكاديمية، ولا هي بالتي تتحقق بطبع بعض المراجع. إن التراث - كما ذكرنا - مبادئ وأوضـاع وتقاليد وقيم، والمهم هو إحياء هذا كله في نفوس الشباب، وحملهم علي الإقبال عليه والإيمان بـه [1] وهنا نجد فضل الإسلام، فهو المعبر ما بين العصر الحديث.. والتراث القديم، وهو القـاموس الذي يفسر مفردات هذا التراث، وما لم تتقد جذوة الإسلام فإن عالم التراث كله سيصبح مظلماً .

وهذا لا يعني الأخذ ضرورة بكل ما تضمنه التراث لأن بعض التراث يسمو إلـى القمـة والذروة وبعضة الآخر في الحضيض. وسنضرب المثل بنظامين من التراث كان من الممكـن أن نصل حاضرنا بهما.. هما "الحسبة" و الأوقاف الخيرية "فنحن نقرأ عن نظم التفتـيش والمراقبـة للأسواق والشئون البلدية والاجتماعية علي أساس أنها نظم مستحدثة. في حين أن نظـام الحسـبة كان يحقق هذا كله علي أفضل صورة وقد تحدث بن خلدون عن واجبات المحتسب فقال .

"... يبحث عن المنكرات ويؤدب علي قدرها، ويحمل الناس علي المصالح العامـة مثـل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم علـي

---

١. أنظر الملاحظة فى هامش ص
إضافة للطبعة الثالثة – المؤلف ..

أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقع من ضررها علي السابلة، والضرب علـي أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها عند ضربهم للمتعلمين" .

ومن هذا يتضح أن مهام المحتسب تضم شئونا بلدية، وثقافية واجتماعية وصحية. وقـد يتصور أن هذا الجمع قد يفسح مجالا للفوضى أو يحول دون التخصص المطلوب. ولكن الحقيقـة أن ذلك هو ما يحول دون تفتت المسئولية، وتميع الاختصاصات وتعدد الرئاسات، وما يجره هـذا كله من تعقيد وتسويف. وهذا الجمع هو ما اخذ به أخيراً في فكرة الحكم المحلي، وتجميع الخدمات في "المحافظة" وليس في هذه المهام كلها ما يتطلب تخصصاً لا يتوفر للشخص المتمرس وصاحب الخبرة والتجربة في الشئون العامة .

ونقطة الإبداع في هذا النظام صدوره "**احتسابا**" ومن هذه الصفة أخذ اسمه . ولكنـه فـي الفترات الأخيرة فقد هذه الصفة وأصبح المحتسب موظفاً عمومياً. ويبدو أنه لم يكن منـاص مـن ذلك، وإن أفقده لمسة الإبداع والمبادأة التي افترض الإسلام أن تصدر عن الضـمير الاجتمـاعي للمسلم واستشعاره لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهناك سبيل للعودة إلـى الخـط الأساسي والفكرة الأصلية للإسلام، ذلك هو إيجاد وظيفة محتسب فخرية في كل "شياخة" أو جزء من شياخة توكل إلى أحد كبار الشخصيات في هذا الموقع ويكون من سروات الناحية أو شـيوخها أو موظفيها المحالين علي المعاش، والمهم أن تتوفر فيه شروط " العدالة " الإسلامية.. وأن يظفر بتقدير واحترام أهالي ناحيته ويمنح اللقب الفخري "المحتسب" ويعطي سـلطات معينـة ومحـددة ويسير في رفقته ممثل للسلطة التنفيذية ويمارس اختصاصاته بطريقة فورية وناجزه. ولا يخالجنا ريب في أن هذا النظام سيسد نقصاً بالغاً . وأنه جدير بان يكون أفضل وأنفع من النظام البريطاني العريق - نظام قضاة الأمن، أو الصلح كما يطلق عليهم في بعض الحالات .

ووجود المحتسب لا يقضي علي واجب الأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر، لان المحتسب يقوم بمهمة "اجتماعية" ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالطريقة التي أوجبهـا النبي) علي كل واحد من المؤمنين واجب فردي. ومن هنا انصبت مهمة المحتسب علي المجالات الاجتماعية التي تخضع لهيمنة السلطة وتقوم بأحكامها وعقوباتها، وليس له دخل في شئون العبادة التي لا تؤدي بوازع السلطان.. ولكن بوازع القرآن، وقد حمت فطنه بن خلدون من أن يقع فـي وهم أن مما يدخل في سلطة المحتسب دفع الناس إلى الصلاة والعبادة وقمعهم عنـد الإهمـال أو المخالفة. فإن هذا أدخل في باب النية والضمائر والقلوب، ولا تجوز العبادة كرها.. ولا الصـلاة

جبراً.. ولا الصوم تظاهراً فإن هذا مما يدخل في دائرة لأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الـذي يقوم به الفرد تطوعاً، ويجب أن يقوم به بالحكمة والموعظة الحسنة، وهي الطريقة التي أمر بهـا القرآن.. ووجه ا تعالي أنبياءه للأخذ بها. واعتقد أن لو حطم أحد الغيـورين مـثلاً تمثـالا أو زجاجة خمر لزيد من الناس علي أساس أنه منكر، وأنه استخدم يده في إزالتـه تطبيقـاً للحـديث المشهور "من رأي منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فقلبـه، وهـذا أضعف الإيمان" وحوكم أمام محكمة إسلامية لوجب أن يغرم الثمن ولحـق عليه أن يدفعه لا مـن ناحية خطأ الفعل فحسب، ولكن لأنه لن تكون له قيمة إلا بالتضحية في سبيله. فلو علم أنه إن فعل ذلك فسيغرم، وفعله تضحية واحتسابا لكان هذا دليل صدق الإيمان ولأثيب علي هذا في الآخـرة. أما لو ترك لتجرأ علي التهجم آمنا من مغبة عمله، ولما كان في ذلك فضل أو تضحية أو شجاعة، فضلا ن إنه سيفسح الباب أمام اجتهادات خاطئة أضعاف الصائبة. ولا يعني هذا تعطيل الحديث. فهناك حالات يتوجب فيها استخدام اليد كما لو شاهد الإنسان لصاً يهم بالقتل أو السرقة أو رجـلا ينتهك عرضاً أو أمثال ذلك. ففي مثل هذه الحالات لابد من استخدام اليد، بل يصبح واجباً.

والنظام الثانى هو نظام الوقف الذي يماثل ما نسميه الخدمة والتأمينـات الاجتماعيـة أو الضمان الاجتماعى وكان يعني بمجالات قد لا تقوم بها الدولة.. وتوسعت مجالات نشاط الأوقاف إلى درجة تصور أنفساح الضمير الاجتماعي لدي الواقفين، فقد روي البعض".. وكان هناك وقف لإعارة الحلي وأدوات الزينة للعرائس في الأفراح حتى لا يضطر العامة من الفقراء إلـى أنفـاق أموالهم في شراء ما لا طاقة لهم به أو الشعور بالنقص نتيجة لعدم المقدرة علي اقتناء ذلك، وكان هناك ملجأ وقف مخصص للنساء اللاتي وقع شجار بينهن وبين أزواجهن فيلجأن إليه حتى يزول ما بينهن وبين أزواجهن فتعود المياه إلى مجاريها.. وكان هناك بعض الأوقـاف لختـان الأولاد، ووقف آخر لتوزيع الأكل والحلوى في شهر رمضان" .

وجاء في كتاب "اشتراكية الإسلام" للشيخ مصطفى السباعى ذكر لبعض الأوقـاف التـي تصور سمو العاطفة الإنسانية وقوة التكافل الاجتماعى الإسلامي نقتبس منها .

٢٦- أوقاف للطب النفسي :

في مدينة طرابلس (لبنان) وقف لتوظيف شخصين يمران كل يوم علي المرضـي فـي المستشفيات ويكون عملها هوان يتحدثا بصوت خافت صامت يسمعه المريض بحيـث يوهمانـه انهما يتكلمان بصوت عادي فيما بينهما يقول أحدهما للأخر "إنى أري فلانا احسن منـه بـالأمس"

فيقول الآخر "وإنى أري إشراق وجهه وعينيه أحسن مما كان يوم أمس. وهكذا" بحيـث يسـمع المريض ذلك فيعتقد صحة ما يقولون. وقد حدثني عن هذا الوقف مدير أوقاف طرابلس في إحدى زيارتي لها .

وكان في مستشفي السلطان قلاوون بالقاهرة فرقة خاصة للتمثيل الشعبي المضحك يقـوم الممثلون بذلك أمام المرضي الذين تشتد آلامهم ويرتفع صراخهم فينسون الألـم ويأخـذون فـي الضحك، وكان فيه فرقة من المنشدين ذوي الأصوات الجميلة يرتلون الأناشيد في منتصف الليل من فوق مئذنة المسجد بالمستشفي ليخففوا من آلام المرضى الذين يؤرقهم الألم ويمنعهم من النوم . كما كانت فرقة للموسيقي وقصاص يقصون القصص الشعبي علي المرضي .

٢٧- أوقاف للتزويج :

أي تزويج الشباب والبنات حين يعجزون أو يعجز آباؤهم عن القيام بنفقات العرس والمهر والجهاز فيتقدم الفتي أو الفتاة إلى قيم الوقف يطلب المعونة تلك، فيعطيه ما هو بحاجة إليه .

٢٨- وقف الزبادي :

وهو خاص لإسعاف الأولاد والخدم الذين يكسرون ما يحملونه من الزبادي في الطريـق إلى البيت، يذهب الصبي أو الخادم إلى قيم الوقف فيعرض عليه نموذجا مما كان يحمل فيعطيـه عوضا عنها ويعود إلى أهله وقد اتقي شر العقوبة، وقد تحدث ابن بطوطة في رحلته عـن هـذا الوقف .

٢٩- نقطة الحليب :

كان مما أوقف صلاح الدين الأيوبى وقف لإمداد الأمهات بالحليب اللازم وميزابـاً آخـر يسيل منه الماء المذاب بالسكر. تأتى الأمهات يومين في كل أسـبوع فيأخـذون لأطفـالهن مـا يحتاجون إليه من الحليب والسكر .

٣٠- وقف للحيوان :

وكان خاصا بإيواء الحيوانات الأليفة في بيت وإطعامها كوقف القطط الذي كان إلى عهـد قريب موجوداً في (سومشا روجه) بدمشق وكان فيه ما يزيد علي أربعمائة قطة مـن الفارهـات السمان .

٣١- تطبيب الحيوان :

وكانت لعلاج الحيوانات المريضة وتطبيبها، ومن ذلك وقف (الموج الأخضر) الذي يقـوم عليه الملعب البلدي بدمشق حاليا - فقد كان وقفا للخيول والحيوانات العاجزة ترعي فيـه حتـى تلاقي حتفها.

هذه الأمثلة توضح لنا أن الإسلام قد غرس في أجدادنا وعياً إنسانيا وتكافلا اجتماعياً يضم كل المجالات التي يمكن تصورها، وشتان ما بين هذا الوعي.. والشعار الرأسمالي "كـل لنفسـه وليأخذ الشيطان الأخير !" ولست ادري ماذا فعلنا بالأوقاف. ومن المحتمل أن النظام قد استغل أو اسيء تطبيقه، ولكن كل النظم عرضة للاستغلال. وكان من الممكن إصلاحها. ويبدو أننا جردناها من صفتها التطوعية وشخصيتها الخاصة وأذبناها في جهاز الدولة الضخم ببيروقراطيته وروتينه وتعقيده .

***

والتراث أيضا تاريخ ..

وقد خُدم التاريخ الإسلامي في الفترة الأخيرة بعض الشيء، واستهوي أقلام مجموعة من الكتاب الذين شادوا الإسلام فغلبهم الإسلام مثل حسين هيكل والعقاد ونفع ا بكتاباتهم كائنـة مـا كانت النوايا التي في القلوب والتي مردها إلى ا ..

وبهذه الطريقة تعرف الجيل على عبقرية عمر وخالد وأبي بكـر، وهـذا الرعيـل الأول فضلاً عما صدر عن النبي الكريم صلوات ا وسلامه عليه ..

ولكن التاريخ الإسلامي حفل في عمقه وامتداده بأسماء ووقائع، بل وظواهر لـم يسـمع المسلم الحديث بها .

فكم من طلبة الجامعة مثلاً يعلم شيئاً عن نور الدين الشهيد الذي أعد الوطن العربي لملاقاة الصليبيين، أو السلطان محمود الغزنوى فاتح الهند.. أو الإمبراطور اورانجزيب.. أعظم أبـاطرة المغول وأكثرهم إسلاماً.. والإمبراطور الذي "عاش طول حياته متمسكاً بقواعد الـدين الحنيـف، محافظاً على سلامته، رحيماً بشعبه المسلم، لم يعن بفن حتى الموسيقى حرمها على نفسه وكـان عازفاً بارعاً، آثر شظف العيش في المأكل والملبس ، حفظ القرآن وجوده وقرأ الأحاديث النبويـة وأوصى بأن يدفن تبعاً للسنة فلا يصرف على كفنه سوى ما كسبه بيده من حياكة الطواقي، وأن لا

يغطى نعشه بغير قطعة من قماش الشراع الخام. وترك للفقراء ثروته الخاصة: ثلاثمائة روبية هي كل ما كسب من نسخ القرآن الكريم[1]

وهناك ظواهر تاريخية تكاد تكون مجهولة مثل الدور الذي قامت به بعض الطرق الصوفية كالسنوسية والتيجانية في نشر الثقافة والمعرفة وإذاعة الإسلام وإقامة ممالك أفريقية زاهرة، كما لا يزال تاريخ الشمال الأفريقي مجهولاً أو شبه مجهول لبقية مسلمي العالم سواء في ذلك تاريخه القديم الحافل بالبطولة والحمية أو تاريخه الحديث الحافل بالمقاومة والكفاح ..

ونتيجة لجهل النشأ الإسلامي بتاريخه ، أصبح تائهاً، ضائعاً، فاقداً لجذوره، لا يحس أصالة ولا اعتزازاً ويعيش عالة على تاريخ غيره.. وانطبق عليه قول شوقي :

مثل القوم نسوا تاريخهم كلقيط عي في القوم انتسابا
أو كمغلوب على ذاكرة يشتكي من صلة الماضي انقضابا

***

والتراث كذلك فنون ..

وأكثر الفنون حفاظاً على التراث - هي العمارة.. فقد كان إنشاء المسجد عمل ديني، كما هو عمل اجتماعي وعمراني.. وكان البدء في تخطيط المدينة هو وضع مسجدها... ثم إقامة المباني والأحياء حوله .

من أجل هذا حفظت العمارة عبر القرون روح التراث الإسلامي، وأثارت هذه الظاهرة إعجاب الكثيرين فجاء في إحدى المقالات "ولقد دهش كاتب هذه السطور - الذي لم يولد في مصر، ولا كان عند مولده مسلماً - عندما وفد إلى هذه البلاد لأول مرة، فرأى المستوى الذى بلغه الفن الديني الحديث في مصر وكيف أنه أرفع مما وصل إليه في بريطانيا بل في أى بلد آخر في أوروبا. ويبدو أن ذلك راجع إلى أن الفنانين المسلمين اليوم يعملون وفقاً لتقاليد حيه توارثوها جيلاً بعد جيل بغير انقطاع على مدى قرون عدة. بينما في أوروبا نجد أن الطراز القواطي نظرية ميته عفى عليها طراز النهضة الذي عفى عليه هو الآخر الطراز الحديث "[1]

فماذا يعرف النشأ المسلم عن مساجده ؟ كم واحد تفقد جامع عمرو بن العاص ؟ كم واحد زار ذلك المسجد الشامخ الممرد الذي يمثل جلال وعراقة وعرامة المعمار الإسلامي ... مسجد السلطان حسن. هذا المسجد الذي اعتبره الكاتب الفنان الأستاذ حسين فوزي صنواً لمعبد سيتي الأول بأبيدوس (العرابة المدفونة) في التمثيل لعمارة مصر ..

---

١. انظر مقالاً ممتازاً للكاتب المبدع للأستاذ حسين فوزي بجريدة الأهرام ١٩٧١/٢/٢٦ .

١. مساجد الإسكندرية بقلم د يعقوب زكي – مجلة المجلة العدد ١٣٦ مارس ١٩٦٨ .

هل هناك شيء يثير الأسى أكثر من أن تطلق عامة القاهرة أسم "مذبح الإنجليـز" علـى مسجد السلطان العظيم بيبرس قاهر الصليبيين والتتار .

ماذا فعلنا بتلك المنطقة الرائعة التي تبدأ من باب زويلة لتنتهي بسيدنا الحسـين.. والتـي تضم في مدخلها منزل جمال الدين الذهبي في جانب.. ومسجد المؤيد في الجانب الآخر..

لقد جعلنا منها "سويقة" تزدحم بالباعة الجائلين من كل نوع، وتعلق الأحذية و"الشباشـب" بالجدران التي رفعتها، بخالص التقوى. والإيمان.. والإتقان، أيدي البناء المسلم .

ما أكثر ما تحرك القلب وأنا أسير في بيت القاضي ونواحي الجمالية.. كل حجـر يكـاد ينطق بقصة، كل ناحية مشهد.. أو فصل من التاريخ ..

لماذا لا نجعل هذه المنطقة - منطقة تاريخية. أو كما يقولون أثرية.. ولما كان لابد مـن استغلالها فليكن للعلم. فتصبح شيئاً كالمدينة الجامعية الأزهرية وتستغل مساجدها الرائعة ككليـات **فتكون هناك كلية "جامع المؤيد للشريعة أو لأصول الدين" والسلطان المؤيد يعـد محـدث روى الصحيح عن السراج البلقيني** وسمع منه (أي من المؤيد) الحافظ بن حجر وأدرجه في "المعجـم" المفهرس ضمن مشايخه. وليس في جعل المساجد كليات غرابه، فإن كليات أوكسـفورد.. تحمـل أسماء مثل كلية "جسد المسيح" أو كلية "الثالوث" أو "كلية كل الأرواح" أو "كلية ماجدالين" .

***

وهناك مجالات عديدة أخرى للتراث وحلقات مفقودة ما بـين علـوم ومعـارف العلمـاء المسلمين.. وعلوم ومعارف الفلاسفة والعلماء الأوروبيين .

وهناك الكثير من المراجع وأمهات الكتب التي تنتظر النشر أو التحقيق، وقد قـدر أحـد الكتاب أن أمهات المراجع في الفقه الإسلامي وحده التي تنتظر النشر والتحقيق تصل إلـى سـتة آلاف[1]

ولا ريب في أن أقرب ما في التراث إلى الإسلام هو ما جاء عن الإسلام نفسه عقيـدة.. وعبادة.. وشريعة.. منذ أن سجى الرسول الكريم في روضته حتى الآن. بما فيه مواقف أبي بكر، واجتهادات عمر، وقضايا علي ثم المذاهب الإسلامية من معتزلة أو خوارج أو مرجئة أو شـيعة حتى ظهور المذاهب الأربعة المشهورة، أو ما لم يقدر له البقاء كالظاهرية أو غيرها.. وما تـلا

---

١. انظر مقالاً للأستاذ جمال العطيفى عن تقنين الشريعة بجريدة الأهرام العدد الصادر يوم ٧٢/٦/١٤

هذه الأجيال من أجيال يبدأ الواحد منها حيث انتهي سابقه، ويضيف علي المتن شرحاً ليوضع علي الشرح حاشية لتطرز الحاشية بحاشية أخري..

□□□□ إن هذا التراث الضخم الذي فنت فيه أعمار.. بعد أعمار وخدم بكل تقوي وإيمان، وجذب عباقرة العالم المسلم لا يزال الكثير منه محفوظاً في مكتبات العالم.. ومـا نشـر يتطلـب الشرح والتحقيق. حتى يمكن لمثقف العصر الإلمام بطريقة السابقين. ولا يخالجني شك في أنه عندما يتجلي الفقه الإسلامي فستشرق علي القانون الدولي شمس جديدة ينكشف امامهـا القـانون الروماني أو قانون نابليون أو غيرهما من القوانين ..(□)

ونحن علي تقديرنا العظيم لهذا التراث وإعجابنا به، فإننا لا نري أن هذا يعنـي الالتـزام الحرفي به، أو إسباغ صفة القداسة عليه. وإنه لمن أعظم الخطأ أن نتصـور أن أحكـام الأئمـة والفقهاء ملزمة شأنها شأن النص القرآني المحكم، أو السنة النبوية الثابتـة، فمـا كـان الأئمـة يتصورون هذا، أو يضعون كلامهم في مرتبة القرآن والحديث، ولم يترددوا قط في نبـذ اي راي قالوا به بمجرد علمهم بنص جديد، أو حتى ظهور أي رأى افضل .

وقد يصور ذلك ما روي عن أبى حنيفة أن رجلا عرض عليه عدداً من الفتاوى كان قـد أفتاه بها قبلا، فرجع عنها فقال له الرجل كيف هذا ؟ قال كان رأيا رأيته فرأيت العام غيره. فقـال الرجل افتأمني أن لا تري من قابل شيئاً آخر قال لا أدري كيف يكون ذلك (□) . ومن المعـروف للعلماء أن الأئمة ، بل وجلة الصحابة، لم يدركوا كل الأحاديث أو الآيات أو الأحكام لأنهـم لـم يلازموا النبي) ملازمة دائمة وإنما سمع كل واحد طرفاً أو نتفاً بقدر ملازمته. ولا يستثني مـن ذلك الخلفاء الراشدون "فهذا أبو بكر رضي ا عنه لما سئل عن ميراث الجدة قال "مالك في كتاب ا شيء، ولكن أسأل الناس "فسألهم فقام المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة فشـهدا أن النبـي) أعطاها السدس، وهذا عمر بن الخطاب رضي ا عنه لم يكن يعلم سنة الاستئذان حتى أخبره بها أبو موسى الأشعري رضي ا عنه. ولم يكن يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها حتى كتب إليـه الضحاك بن سفيان أمير رسول ا) على بعض البوادي يخبره أن رسول ا) أورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها، ولم يكن يعلم حكم المجوس في الجزية حتى أخبره عبد الـرحمن بـن عوف أن رسول ا) قال: "سنوا بهم سنة أهل الكتاب"، ولما قدم سرغ وبلغه أن الطاعون بالشام

٢. لقد رأينا أخيراً أن التواكل والاعتماد على التراث اعتماداً كلياً حال دون استخدام العقل حتى صدئ عقل المسلمين، وأصـبح الاتجـاه لدينا هو تنحية التراث جانبا، والاعتماد على العقل والبدء من نقطة الصفر. ولم يعد أمامنا وقت حتى لتنقية التراث. فما ننفقه من وقـت ومال وجهد فى ذلك أجدى به أن ننفقه على فكر يجابه تحديات العصر، والمجتمع بعد، ليس متحفاً للآثار القديمة ولكنه ساحة صراع بين قوى الحياة، ولا يحول هذا دون أن يعكف بعض الأكاديميين على التراث كما يعكف علماء الآثار القديمة عليها لمعرفة الماضى لا للأخذ بها فى الحاضر أو المستقبل . "إضافة للطبعة الثالثة " - المؤلف ..

١. تأويل مختلف الحديث لأبن قتيبة ص ٥١ .

استشار المهاجرين الأولين الذين معه، ثم الأنصار، ثم مسلمة الفتح فأشار كل عليه بما رأي ولم يخبره أحد بسنه حتى قدم عبد الرحمن ابن عوف فأخبره بسنة رسول الله) في الطاعون وأنه قال " إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منها وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه" وهذا عثمان رضي الله عنه لم يكن عنده علم بأن المتوفى عنها زوجها تعتد في بيت زوجها حتى حدثته الفريعة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري بقضيتها لما توفي زوجها وأن النبي) قال لها امكثى في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله" فأخذ به عثمان

وأفتي عثمان وابن عباس وزيد وابن عمر وغيرهم بأحكام رجعوا عنها عندما علموا بسنة كانوا يجهلونها "ومن اعتقد أن كل حديث قد بلغ كل واحد من الأئمة أو إماما معيناً فهو مخطئ خطأ بيناً " .

ومع هذا فنحن نعتقد أن فتح باب الاجتهاد، ما لم ينظم، فقد يؤدى إلى مثل الفوضى التي أدت إلى غلقه. وإن لم يكن لنا العذر الذي كان للأقدمين، الذين لم تتوفر لهم وسائل الاتصال المتوفرة لنا..

وأتصور أن يعقد في كل عام مجمع للاجتهاد الإسلامي يحضره مجتهدون من كل الأقطار الإسلامية يعرضون وجهة نظرهم دون إصدار حكم فيها وتنشر محاضر هذه الجلسات في الصحف وتوزع علي الشخصيات المعنية لتكون محل دراسة ومناقشة في مختلف الدول الإسلامية، فإذا حال الحول نسقتها سكرتارية المجمع وصنفتها ولخصتها ووضعتها أمام الجميع ليعالج الموضوع في ضوء المناقشات السابقة. فإذا تبين للمجمع رأي جلي واضح أخذ به واعتبر أنه رأي الجمهور.. وإلا اجله إلى قابل. وبهذه الطريقة يمكن التوصل إلى مذهب جديد يجمع حسنات المذاهب وتكون له صلاحية خاصة بالنسبة للعصر، ويمكن لهذا المذهب أن يصبح المذهب "الرسمي" دون أن يكون هناك إلزام بأن يتبعه كل واحد. فإذا أوضح التطور أن هناك خطأ أو قصوراً في ناحية من نواحي المذهب يتطلب التعديل عرض الأمر على الاجتماع [illegible] بالتعديل المطلوب، شأنه في ذلك شأن أي قانون يسن ثم يتضح قصوره فيعدل بقانون آخر.

---

١. كتاب "الحديث والمحدثون" تأليف الشيخ محمد أبو زهو ص ٢٩ .

٢. المرجع السابق ص ٢٩ .

١. قضى الأمر، واصدرنا "نحو فقه جديد" بأجزائه الثلاث ما بين ٩٥-١٩٩٩ بعد أن لم يتحرك أحد للتفكير فيما عرضناه هنا سنة ١٩٧٢ والمفروض أن يكون ما جاء فى "نحو فقه جديد" مثار للمناقشة ..

إلى ... 

الأخ العزيز المهندس عبد ا   البنا

الذى مثل روح الإسلام

بشـــراً ســـوياً ...

جمال البنا